

لَيَسْجَنَ وَلَيَكُونَا مِنَ الصَّغِيرِينَ ﴿يوسف: ٣٢﴾، وقوله: ﴿وَلَيْنَ جِثَّتْهُمْ بَيَّابَهُ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُبْطِلُونَ﴾ [الروم: ٥٨]، وقوله: ﴿وَلَيْنَ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولَنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٠]، وقوله: ﴿وَلَيْنَ أَخْرَجْنَا عَنْهُمْ الْعَذَابَ إِلَى أُمَّةٍ مَعْدُودَةٍ لَيَقُولَنَّ مَا يَجِئُهُ...﴾ [هود: ٨].

ومثل هذا كثير وحيث لم يذكر القسم فهو محذوف مراد تقدير الكلام - والله -
﴿لَيْنَ أُخْرِجُوا لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ﴾ - والله - ﴿... وَلَيْنَ قُوتِلُوا لَا يَضُرُّوهُمْ...﴾ [الحشر: ١٢].

ومن محاسن لغة العرب أنها تحذف من الكلام ما يدل المذكور عليه اختصاراً وإيجازاً، لا سيما فيما يكثر استعماله كالقسم، (وقوله): ﴿... لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ...﴾.

هي ما الشرطية والتقدير، أي شيء أعطيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، ولا تكتفوا بما عندكم عما جاء به ولا يحملنكم ما آتيتكم من كتاب وحكمة على أن تتركوا متابعتة، بل عليكم أن تؤمنوا به وتنصروه، وإن كان معكم من قبله من كتاب وحكمة فلا يغنيكم ما آتيتكم عما جاء به فإن ذلك لا ينجيكم من عذاب الله.

فدل ذلك على أنه من أدرك محمداً من الأنبياء وأتباعهم وإن كان معه كتاب وحكمة فعليه أن يؤمن بمحمد وينصره كما قال: ﴿... لَمَّا آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتَابٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ...﴾.

وقد أقر الأنبياء بهذا الميثاق وشهد الله عليهم به كما قال تعالى: ﴿... جَاءَكُمْ رَسُولٌ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنَنَّ بِهِ وَتَنْصُرُنَّهُ قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي قَالُوا أَقْرَرْنَا قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿فَمَنْ تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (٨٧)، ثم قال تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ اللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُ أَسْلَمَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ﴾ (٨٨)، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ ءَأَمَنَا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ عَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَالنَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (٨٩)، ثم قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (٩٠).

قالت طائفة من السلف: لما أنزل الله هذه الآية قال من قال من اليهود والنصارى: نحن مسلمون. فقال تعالى: ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾.

فقالوا: لا نحج فقال تعالى: ﴿... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾.

فكل من لم ير حج البيت واجباً عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دل عليه القرآن.

واليهود والنصارى لا يرونه واجباً عليهم فهم من الكفار حتى إنه روي في حديث مرفوع إلى النبي ﷺ: «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً وإن شاء نصرانياً»^(١).

وهو محفوظ من قول عمر بن الخطاب رضي الله عنه^(٢)، وقد اتفق المسلمون على أن من جحد وجوب مباني الإسلام الخمس: الشهادتين، والصلوات الخمس، والزكاة وصيام شهر رمضان، وحج البيت فإنه كافر.

وأيضاً فقد قال تعالى في أول السورة: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَابِئًا بِأَلْسِنَتِهِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعٌ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنَ وَقُلْ لِّلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَاللَّذِينَ آمَنُوا أَتَسْلَمُونَ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاءُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٢٠﴾﴾ [آل عمران].

فقد أمره تعالى بعد قوله: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ...﴾. أن يقول: أسلمت وجهي لله، ومن اتبعن، وأن يقول للذين أتوا الكتاب وهم اليهود والنصارى، والأميين، وهم الذين لا كتاب لهم من العرب وغيرهم: أسلمتم؟ فالعرب الأميون يدخلون في لفظ الأميين باتفاق الناس.

وأما من سواهم: فإما أن يشمله هذا اللفظ أو يدخل في معناه بغيره من الألفاظ المبينة أنه أرسل إلى جميع الناس.

(٢) وهو أصح من المرفوع.

(١) مرّ تخريجه.

قال تعالى: ﴿... فَإِنِ اسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلْغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران].

فقد أمر أهل الكتاب بالإسلام كما أمر به الأميين وجعلهم إذا أسلموا مهتدين، وإن لم يسلموا فقد قال: إنما عليك البلاغ، أي تبلغهم رسالات ربك إليهم والله هو الذي يحاسبهم، فدل هذا كله على أنه عليه أن يبلغ أهل الكتاب ما أمرهم به من الإسلام كما يبلغ الأميين، وأن الله يحاسبهم على ترك الإسلام كما يحاسب الأميين. وفي الصحيحين عن النبي ﷺ في الكتاب الذي كتبه إلى هرقل ملك النصارى: «من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم سلام على من اتبع الهدى، أما بعد: فإنني أدعوك بدعاية الإسلام، أسلم تسلم، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين، وإن توليت فإن عليك إثم الأريسيين» و﴿قُلْ يَتَّهَلُ الْكِتَابَ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَّامٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِن دُونِ اللَّهِ فَإِن تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (٦٤) ﴿١﴾ [آل عمران].

وأبلغ من ذلك أن الله تعالى أخبر في كتابه أن الإسلام دين الأنبياء كنوح وإبراهيم، ويعقوب، وأتباعهم إلى الحواريين، وهذا تحقيق لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ...﴾.

وإن الدين عند الله الإسلام في كل زمان ومكان.

قال تعالى عن نوح أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض: ﴿... وَأَتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَتَقَوُّوا إِن كَانَ كِبَرٌ عَلَيْكُمْ مَقَامِي وَتَذَكِّرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمَعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ﴾ (٦١) ﴿٦١﴾ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ إِن أَجْرِي إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمْرٌ أَن أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٦٢) ﴿٦٢﴾ [يونس].

فهذا نوح الذي غرق أهل الأرض بدعوته، وجعل جميع آدميين من ذريته يذكر أنه أمر أن يكون من المسلمين.

وأما الخليل فقال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (١٢٧) ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (١٢٨) ﴿١٢٨﴾ [البقرة].

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْعُبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لِمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٣١﴾ وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَبْنَؤُا إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الَّذِينَ فَلَا تَمُوتُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿٣٢﴾ [البقرة].

فقد أخبر تعالى أنه أمر الخليل بالإسلام، وأنه قال: أسلمت لرب العالمين وأن إبراهيم وصى بنيه، ويعقوب وصى بنيه أن لا يموتن إلا وهم مسلمون.

وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمَ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (٦٧) إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ [آل عمران].

وقال تعالى عن يوسف الصديق بن يعقوب أنه قال: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ الْمَلِكِ وَعَلَّمَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَرِيءِ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَالْحَقِيقِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (١٠١) [يوسف]، وقال تعالى عن موسى: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنْتُمْ ءَامَنُوا بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ (٨٤) [يونس]، وقال عن السحرة الذين آمنوا بموسى: ﴿قَالُوا لَا ضَيْرَ لَنَا إِلَىٰ رَبِّنَا مَنُقَلِبُونَ﴾ (٥١) إِنَّا نَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطِيئَاتِنَا أَنْ كُنَّا أَوَّلَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٥١﴾ [الشعراء]، وقال أيضاً: ﴿وَمَا نُنْقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ ءَامَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (١٢٢) [الأعراف]، وقال تعالى في قصة سليمان: ﴿إِنَّهُمْ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ (٢٦) أَلَّا تَعْلَمُوا عَلَىٰ وَاتُوفِي مُسْلِمِينَ ﴿٢٦﴾ [النمل]، وقال: ﴿قَالَ يَتَابِعُهَا الِّمَلَأُوا أَتِكُمْ يَأْتِيَنَّ بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ (٢٨) [النمل]، وقال: ﴿... وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ...﴾ [النمل: ٤٢].

وقال عن بلقيس التي آمنت بسليمان: ﴿... رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤]، وقال - عن أنبياء بني إسرائيل -: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يُحْكَمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا...﴾ [المائدة: ٤٤]، وقال تعالى عن الحواريين: ﴿وَإِذْ أُوحِيَتْ إِلَىٰ الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِى وَيُرْسِلُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (١١١) [المائدة]، وقال تعالى: ﴿رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ (٥٢) [آل عمران].

فهؤلاء الأنبياء وأتباعهم. كلهم يذكر تعالى أنهم كانوا مسلمين، وهذا مما يبين أن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ...﴾، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَمُ...﴾ [آل عمران: ١٩] لا يختص بمن بعث إليه محمد ﷺ، بل هو حكم عام في الأولين والآخرين، ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ (١٢٥) [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِيًّا تِلْكَ الْأَمْثَلُ لِمَنْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ (١١١) بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (١١٧) [البقرة] ا.هـ (١).

﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨١).

(قيل: إن القرآن قد بين توبة الكافر وإن كان قد ارتد ثم عاد إلى الإسلام في غير موضع، كقوله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨١) أُولَئِكَ جَزَاءُهمُ أَنْ عَلَيْهِمُ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَكِئَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَالِدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٨٩)﴾ فقوله: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ؟﴾ أي إنه لا يهديهم مع كونهم مرتدين ظالمين؛ ولهذا قال: ﴿وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ فمن ارتد عن دين الإسلام لم يكن إلا ضالاً، فلا يحصل له الهدي إلى أي دين ارتد. «والمقصود» أن هؤلاء لا يهديهم الله ولا يغفر لهم إلا أن يتوبوا) ا.هـ (٢).

قال رحمه الله: (فإن الذين ارتدوا على عهد رسول الله ﷺ كالحارث بن قيس، وطائفة معه أنزل الله فيهم: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ الآية، والتي بعدها) ا.هـ (٣).

﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩).

(١) الجواب الصحيح (٢/ ١١٧ - ١٣٢). (٢) مجموع الفتاوى (١٦/ ٢٧ - ٢٨).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/ ٤٦)، تفسير آيات أشكلت (١/ ٣٢١ - ٣٢٢).

(قال الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩) في التائب من الردة) ا. هـ^(١).

قال رحمه الله: (قال في كتابه: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٦) إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (٨٩) فأخبر أنه غفور لمن تاب بعد الردة، وذلك يقتضي مغفرته له في الدنيا والآخرة، ومن هذا حاله لم يعاقب بالقتل.

يبين ذلك ما رواه الإمام أحمد قال: حدثنا علي بن عاصم عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس أن رجلاً من الأنصار ارتد عن الإسلام ولحق بالمشركين، فأنزل الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا﴾ إلى آخر الآية فبعث بها قومه إليه، فرجع تائباً، فقبل النبي ﷺ ذلك منه وخلي عنه^(٢)، ورواه النسائي من حديث داود مثله.

وقال الإمام أحمد: ثنا علي بن خالد عن عكرمة بمعناه، وقال: والله ما كذبني قومي على رسول الله ﷺ، وما كذب رسول الله ﷺ والله أصدق الثلاثة، فرجع تائباً، فقبل النبي ﷺ ذلك منه وخلي عنه^(٣).

وقال: ثنا حجاج عن ابن جريج حديثاً عن عكرمة مولى ابن عباس في قول الله تعالى: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ﴾ في أبي عامر بن النعمان ووحوح بن الأسلت والحارث بن سويد بن الصامت في اثني عشر رجلاً رجعوا عن الإسلام ولحقوا بقريش، ثم كتبوا إلى أهلهم: هل لنا من توبة؟ فنزلت: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ﴾ في الحارث بن سويد بن الصامت^(٤).

وقال: ثنا عبد الرزاق أنا جعفر عن حميد عن مجاهد قال: جاء الحارث بن

(١) مجموع الفتاوى (٨/٣٢٢).

(٢) رواه أحمد في المسند (٢٢١٨) والنسائي في تفسيره (٨٥) والحاكم في مستدركه (١٤٢/٢) والطبري (٧٣٦٠) وإسناده حسن وحكم أحمد شاكر بصحته.

(٣) الطبري (٧٣٦٣).

(٤) الطبري (٧٣٦٧)، وعزاه السيوطي في الدر (٢/٢٥٧) لعبد بن حميد عن الشدي.

سويد فأسلم مع النبي ﷺ ثم كفر الحارث فرجع إلى قومه، فأنزل الله فيه القرآن: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ﴾ - إلى قوله - ﴿عَفْوَرٌ رَجِيمٌ﴾ قال: فحملها إليه رجل من قومه، فقرأها عليه، فقال الحارث: والله إنك ما علمت لصادق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله لأصدق الثلاثة، قال: فرجع الحارث فأسلم فحسن إسلامه (١).

وكذلك ذكر غير واحد من أهل العلم أنها نزلت في الحارث بن سويد وجماعة ارتدوا عن الإسلام وخرجوا من المدينة كهيئة البدء، ولحقوا بمكة كفاراً، فأنزل الله فيهم هذه الآية، فندم الحارث وأرسل إلى قومه: أن سلوا رسول الله ﷺ: هل لي توبة؟ ففعلوا ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوَرٌ رَجِيمٌ﴾ (٨٩) فحملها إليه رجل من قومه، فقرأها عليه، فقال الحارث: إنك والله ما علمت لصديق، وإن رسول الله ﷺ لأصدق منك، وإن الله ﷻ لأصدق الثلاثة، فرجع الحارث إلى المدينة وأسلم وحسن إسلامه (٢) ١. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (إن الله سبحانه قال: ﴿كَيْفَ يَهْدِي اللَّهُ قَوْمًا كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ وَشَهِدُوا أَنَّ الرَّسُولَ حَقٌّ وَجَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨١) أَوْلَيْكَ جَزَاءُهُمْ أَنْ عَلَيْهِمْ لَعْنَةُ اللَّهِ وَالْمَلَيَكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ (٨٧) خَلِيدِينَ فِيهَا لَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٨) إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ عَفْوَرٌ رَجِيمٌ (٨٩) إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأَوْلَيْكَ هُمُ الضَّالُّونَ (٩٠)﴾ فأخبر سبحانه أن من ازداد كفرًا بعد إيمانه لن تُقبل توبته، وفرق بين الكفر المزداد كفرًا، والكفر المجرد، في قبول التوبة من الثاني دون الأول؛ فمن زعم أن كل كفر بعد الإيمان تُقبل منه التوبة فقد خالف نص القرآن.

وهذه الآية إن كان قد قيل فيها: إن ازدياد الكفر المُقام عليه إلى حين الموت، وإن التوبة المنفية هي توبته عند الغرغرة أو يوم القيامة؛ فالآية أعم من ذلك) ١. هـ (٤).

- (١) عبد الرزاق في «تفسيره» (١٢٥/١) والطبري عنه (٧٣٦٣) وعزاه السيوطي في «الدر» (٤٩/٢) لمسدد وابن المنذر والباوردي في معرفة الصحابة.
 (٢) الطبري (٧٣٦٠).
 (٣) الصارم المسلول (٣٢١ - ٣٢٣).
 (٤) الصارم المسلول (٣٧٤).

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ تُقْبَلَ تَوْبَتُهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ ﴿١٠﴾ .

(والآية إنما دلت على قبول توبة من كفر بعد إيمانه إذا لم يزدد كفراً، أما من كفر وزاد على الكفر فلم تدل الآية على قبول توبته، بل قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا﴾ قد يتمسك بها من خالف ذلك، على أنه إنما استثنى من تاب وأصلح، وهذا لا يكون فيمن تاب بعد أخذه، وإنما استفدنا سقوط القتل عن التائب بمجرد توبته من السنة، وهي إنما دلت على من جرد الردة مثل الحارث بن سويد، ودلت على أن من غلظها كابن أبي سرح يجوز قتله بعد التوبة والإسلام.

الوجه الثاني: أنه مقتول لكونه كفر بعد إسلامه، ولخصوص السب كما تقدم تقريره، فاندرج في عموم الحديث مع كون السب مغالطاً لجرمه مؤكداً لقتله.

والوجه الثالث: أنه عام، وأنه قد خص منه تارك الصلاة وغيرها من الفرائض عند من يقتله ولا يكفره، وخص منه قتل الباغي وقتل الصائل بالسنة والإجماع فلو قيل: إن السب موجب للقتل بالأدلة التي ذكرناها، وهي أخص من هذا الحديث لكان كلاماً صحيحاً.

وأما من يحتج بهذا الحديث في الذمي إذا سب ثم أسلم فيقال له: هذا وجب قتله قبل الإسلام، والنبوي ﷺ إنما يريد إباحة الدم بعد حقه بالإسلام، ولم يتعرض لمن وجب قتله ثم أسلم أي شيء حكمه، ولا يجوز أن يُحمل الحديث عليه، فإنه إذا حُمِلَ على حل الدم بالأسباب الموجودة قبل الإسلام وبعده لزم من ذلك أن يكون الحربي إذا قتل أو زنى ثم شهد شهادتي الحق أن يُقتل بذلك القتل والزنى؛ لشمول الحديث على هذا التقدير له، وهو باطل قطعاً، ولا يجوز أن يُحمل على أن كل من أسلم لا يحل دمه إلا بإحدى الثلاث إن صدر عنه بعد ذلك، لأنه يلزمه أن لا يُقتل الذمي بقتل أو زنى صدر منه قبل الإسلام؛ فعلم أن المراد أن المسلم الذي تكلم بالشهادتين يعصم دمه، لا يبيحه بعد هذا إلا إحدى الثلاث، ثم لو اندرج هذا في العموم لكان مخصوصاً بما ذكرناه من أن قتله حد من الحدود، وذلك أن كل من أسلم فإن الإسلام يعصم دمه فلا يباح بعد ذلك إلا بإحدى الثلاث، وقد يتخلف الحكم عن هذا المقتضي لمانع من ثبوت حد قصاص أو زنى أو نقض عهد فيه ضرر وغير ذلك، ومثل هذا كثير في العمومات.

وأما الآية على الوجهين الأولين فنقول: إنما تدل على أن من كفر بعد إيمانه ثم تاب وأصلح فإن الله غفور رحيم، ونحن نقول بموجب ذلك، أما من ضم إلى الكفر انتهاك عرض الرسول والافتراء عليه أو قتله أو قتل واحداً من المسلمين أو انتهاك عرضه فلا تدل الآية على سقوط العقوبة عن هذا على ذلك، والدليل على ذلك قوله سبحانه: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾ فإن التوبة عائدة إلى الذنب المذكور، والذنب المذكور هو الكفر بعد الإيمان وهذا أتى بزيادة على الكفر توجب عقوبة بخصوصها كما تقدم، والآية لم تتعرض للتوبة من غير الكفر.

ومن قال: «هو زنديق» قال: أنا لا أعلم أن هذا تاب، ثم إن الآية إنما استثني فيها من تاب وأصلح، وهذا الذي رفع إلي لم يصلح، وأنا لا أؤخر العقوبة الواجبة عليه إلا أن يظهر صلاحه، نعم الآية قد تعم من فعل ذلك ثم تاب وأصلح قبل أن يُرفع إلى الإمام، وهذا قد يقول كثير من الفقهاء بسقوط العقوبة، على أن الآية التي بعدها قد تُشعر بأن المرتد قسман: قسم تقبل توبته، وهو من كفر فقط، وقسم لا تقبل توبته، وهو من كفر ثم ازداد كفراً، قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزَادُوا كُفْرًا لَنْ نَقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ﴾.

وهذه الآية وإن كان قد تأولها أقوام على من ازداد كفراً إلى أن عين الموت فقد يستدل بعمومها على هذه المسألة فقال^(١): من كفر بعد إيمانه وازداد كفراً بسبب الرسول ونحوه لم تقبل توبته، خصوصاً من استمر به ازدياد الكفر إلى أن ثبت عليه الحد وأراد السلطان قتله، فهذا قد يقال: إنه ازداد كفراً إلى أن رأى أسباب الموت، وقد يقال: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُمُ الَّذِي كَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكْ يَنْفَعَهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا﴾ [غافر]، وأما قوله ﷻ: ﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مِمَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فإنه يُغفر لهم ما قد سلف من الآثام، وأما من الحدود الواجبة على مسلم مرتد أو معاهد فإنه يجب استيفاؤها بلا تردد، على أن سياق الكلام يدل أنها في الحربي.

ثم نقول: الانتهاء إنما هو الترك قبل القدرة كما في قوله تعالى: ﴿لَنْ لَمْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مِمَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨] فإنه يُغفر لهم ما قد سلف من الآثام، وأما من الحدود الواجبة على مسلم مرتد أو معاهد فإنه يجب استيفاؤها بلا تردد، على أن سياق الكلام يدل أنها في الحربي.

(١) كذا في الأصل ولعلها: فيقال.

قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَلْعُونِينَ^ط أَيَنَمَا تُفِقُوا أُخِذُوا وَقُتِلُوا تَفْتِيلًا ﴿٦١﴾ [الأحزاب] فمن لم يتب حتى أخذ فلم ينته .

ويقال أيضاً: إنما تدل الآية على أنه يُغفر لهم، وهذا مسلم، وليس كل من غفر له سقطت العقوبة عنه في الدنيا؛ فإن الزاني أو السارق لو تاب توبة نصوحاً غُفِرَ اللهُ له ولا بد من إقامة الحدود عليه) ا. هـ (١) .

وقال رحمه الله: (وهو سبحانه في آل عمران ذكر المرتدين ثم ذكر التائبين منهم، ثم ذكر من لا تقبل توبته ومن مات كافراً؛ فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بَعْدَ إِيمَانِهِمْ ثُمَّ أَزْدَادُوا كُفْرًا لَنْ نُقْبَلَ تَوْبَتَهُمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الضَّالُّونَ﴾ ﴿٦٠﴾ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ نِيلٌ مِنَ الْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوْ أَقْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ﴾ ﴿٦١﴾ . وهؤلاء الذين لا تقبل توبتهم قد ذكروا فيهم أقوالاً: قيل لنفاقهم، وقيل: لأنهم تابوا مما دون الشرك ولم يتوبوا منه، وقيل: لن تقبل توبتهم بعد الموت، وقال الأكثرون كالحسن (٢) وقاتادة (٣) وعطاء الخراساني (٤) والسدي (٥): لن تقبل توبتهم حين يحضرهم الموت، فيكون هذا كقوله: ﴿وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَصَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي لَمِنَ الْكٰفِرِينَ﴾ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾ [النساء: ١٨] ا. هـ (٦) .

﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ وَمَا يُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ ﴿٩٢﴾ .
قال الله تعالى: ﴿لَنْ نَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّىٰ تُنْفِقُوا مِمَّا حُبَبْتُمْ﴾ ﴿٩٢﴾ فما كان أحب إلى المرء إذا تقرب به إلى الله تعالى كان أفضل له من غيره؛ وإن استويا في القيمة) ا. هـ (٧) .

﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِيَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صٰدِقِينَ﴾ ﴿٩٣﴾ .

- (١) الصارم المسلول (٤٦٤ - ٤٦٦) .
- (٢) الطبري (٧٣٧٢) وابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ٩٣٧) من غير سند .
- (٣) ابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ٩٣٥) والطبري (٧٣٧٤) .
- (٤) ابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ٩٣٦) بدون سند .
- (٥) ابن جرير (٧٣٨٣) .
- (٦) مجموع الفتاوى (٢٨/١٦ - ٢٩) .
- (٧) مجموع الفتاوى (٢٨/١٦ - ٢٩) .

(ولهذا كانوا يحرمون على أنفسهم أشياء فتحرم وقال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ ﴿فكانوا يوجبون ويحرمون بأيمانهم ونذورهم) ١. هـ^(١).

قال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ ﴿فإسرائيل حرم على نفسه شيئاً فحرم عليه) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد ثبت في الصحاح والسنن والمسانيد هذا. ففي الصحيحين^(٣) عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما أنه قال: إن اليهود جاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فذكروا له أن امرأة منهم ورجلاً زنيا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما تجدون في التوراة في شأن الرجم؟». قالوا: نفضحهم ويجلدون. فقال عبد الله بن سلام: كذبتم. إن فيها الرجم. فأتوا بالتوراة، فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم، فقرأ ما قبلها وما بعدها. فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا فيها آية الرجم. فقالوا: صدق يا محمد. فأمر بهما النبي صلى الله عليه وسلم، فرجما.

وأخرج البخاري عن عبد الله بن عمر أنه قال: أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بيهودي ويهودية قد زنيا، فانطلق حتى جاء يهود. فقال: ما تجدون في التوراة على من زنى؟ قالوا: نسود وجوههما، ويطاف بهما. قال: ﴿فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾، قال: فجاءوا بها فقرأوها حتى إذا مروا بآية الرجم وضع الفتى الذي يقرأ يده على آية الرجم، وقرأ ما بين يديها وما وراءها، فقال عبد الله بن سلام وهو مع رسول الله صلى الله عليه وسلم: مره فليرفع يده فرفعها، فإذا تحتها آية الرجم. قالوا: صدق، فيها آية الرجم، ولكننا نتكأتمه بيننا، وإن أحبارنا أحدثوا التحميم والتجبية. فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم برجمهما فرجما) ١. هـ^(٤).

قال رحمه الله: (ولهذا قال سبحانه: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ﴾ قُلْ فَأَتُوا بِالتَّوْرَةِ فَأَتَوْهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٣﴾، فأمرنا أن نطلب منهم إحضار التوراة وتلاوتها إن كانوا صادقين في

(١) نظرية العقد (٢٣).

(٢) مجموع الفتاوى (١٤٧/٣٣).

(٣) البخاري (٣٦٣٥)، ومسلم (١٦٩٩).

(٤) الجواب الصحيح (٤٢٨/٢ - ٤٢٩).

نقل ما يخالف ذلك) ا.هـ^(١).

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مِّمَّا يُرَاهِمُ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾.

(قال عكرمة^(٢) وغيره: لما أنزل الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ قالت اليهود والنصارى: فنحن مسلمون. فأنزل الله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾. فقالوا: لا نحج. فقال تعالى: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾ فيبين أن من تمام الإسلام طاعته فيما فرض من حج بيته، وإلا فمن كفر بالحج فلم ير حجه براً، ولا تركه إثماً: لم يكن مسلماً مطيعاً لله ورسوله) ا.هـ^(٣).

قال رحمه الله: (ووفد نجران لما قدموا أنزل الله تبارك وتعالى بسبب ما جرى صدر سورة آل عمران، وذكر تعالى فرض الحج بقوله: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾).

وهذا نزل إما سنة تسع وإما سنة عشر، كما ذكر ذلك غير واحد من العلماء منهم: القاضي أبو يعلى وغيره.

قالوا: وجوب الحج ثبت بقوله: ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجُّ الْبَيْتِ...﴾.

وروي أنه نزل في سنة عشر، وروي أنه نزل في سنة تسع، وهذا قول جمهور العلماء.

قالوا: إن فرض الحج إنما ثبت بهذه الآية، وقال بعضهم: بل ثبت ذلك بقوله تعالى: ﴿... وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ...﴾ [البقرة: ١٩٦].

وهذه الآية نزلت سنة ست عام الحديبية لما صد المشركون رسول الله ﷺ عن البيت وصالحهم ذلك العام وبأيع المسلمين تحت الشجرة، وأنزل الله فيها سورة الفتح، ثم رجع إلى المدينة وفتح الله عليهم خبير سنة سبع، وفيها قدم عليه جعفر بن أبي طالب مع وفد الحبشة، ثم أرسل جعفرأ، وزيدأ، وعبد الله بن رواحة، لغزو النصارى لمؤتة،

(١) مجموع الفتاوى (٤/١١١).

(٢) مرّ تخريجه.

(٣) نظرية العقد (٨)، مجموع الفتاوى (٤/٢٥٦)، اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٨٣١).

ثم فتح مكة سنة ثمانٍ في رمضان، ثم في أثناء سنة تسع غزا النصارى إلى تبوك، وفيها حج أبو بكر الصديق رضي الله عنه وأمر أن لا يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (كما لم يكن ذلك مفروضاً في أول الإسلام، وإنما فرضه الله على محمد صلى الله عليه وسلم في آخر الأمر لما نزلت «سورة آل عمران». وفي البقرة أمر بإتمام الحج والعمرة لمن شرع فيهما؛ ولهذا كان التطوع بهما يوجب إتمامهما عند عامة العلماء. وقيل إن الأمر بالإتمام إيجاب لهما ابتداءً، والأول هو الصحيح) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾، وحرف (على) للإيجاب لا سيما إذا ذكر المستحق فليل لفلان على فلان، وقد أتبعه بقوله: ﴿وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ ليعين أن من لم يعتقد وجوبه فهو كافر، وأنه إنما وضع البيت وأوجب حجه ليشهدوا منافع لهم لا لحاجة إلى الحج كما يحتاج المخلوق إلى من يقصده ويعظمه، لأن الله غني عن العالمين، وكذلك قوله: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٦] على أحد التأويلين، وقوله: ﴿وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: ٢٧]. فأذن فيهم: «إن لربكم بيتاً فحجوه») ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وعن علي بن أبي طالب رضي الله عنه قال: لما نزلت ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال المؤمنون: يا رسول الله أفي كل عام مرتين [فسكت، ثم قالوا: يا رسول الله أفي كل عام مرتين] فقال: «لا، ولو قلت نعم لوجبت» فأنزل الله تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَسْأَلُونَ عَنْ أَسْبَابِهَا إِن تُبَدَّ لَكُمْ تَسْأَلُهُمْ﴾ [المائدة: ١٠١]، رواه أحمد وابن ماجه والترمذي^(٤) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (فأما وجوبه عليهم بمعنى أنهم يؤمرون به بشرطه، وأن الله يعاقبهم على تركه فهو ظاهر المذهب عندنا لأن الله تعالى قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ فعم، ولم يخص) ١. هـ^(٦).

(١) الجواب الصحيح (١/ ١٧١ - ١٧٣).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٧/ ٣٥٢).

(٣) شرح العمدة - الحج (١/ ٧٦ - ٧٧).

(٤) الترمذي (٨١٤)، وابن ماجه (٢٨٨٥)، وأحمد (١/ ١١٣)، والحاكم (٣/ ٢٩٣) والحديث صحيح.

(٥) شرح العمدة - الحج (١/ ١١٠ - ١١١). (٦) شرح العمدة - الحج (١/ ١١٤).

وقال رحمه الله: (وعن الحسن قال: لما نزلت: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ قال: قيل: يا رسول الله ما السبيل؟ قال: «الزاد والراحلة»^(١) رواه أحمد، وأبو داود في مراسيله وغيرهما، وهو صحيح عن الحسن، وقد أفتى به، وهذا يدل على ثبوته عنده، واحتج به أحمد.

وعن ابن عباس قال: «من ملك ثلاثمائة درهم وجب عليه الحج، وحرم عليه نكاح الإماء» رواه أحمد^(٢)، وأيضاً قوله: «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله، ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً، وإن شاء نصرانياً»^(٣).

فهذه الأحاديث مسندة من طرق حسان ومرسلة وموقوفة تدل على أن مناط الوجوب: وجود الزاد والراحلة، مع علم النبي ﷺ بأن كثيراً من الناس يقدرون على المشي.

وأيضاً فإن قول الله سبحانه في الحج: ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ إما أن يعني به القدرة المعتبرة في جميع العبادات وهو مطلق المكنة، أو قدراً زائداً على ذلك. فإن كان المعبر هو الأول: لم يحتج إلى هذا التقييد، كما لم يحتج إليه في آية الصوم، والصلاة، فعلم أن المعبر قدر زائد على ذلك، وليس هو إلا المال.

وأيضاً فإن الحج عبادة تفتقر إلى مسافة، فافتقر وجوبها إلى ملك الزاد والراحلة كالجهاد.

ودليل الأصل قوله تعالى: ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَحْدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ﴾ إلى قوله تعالى ﴿وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا اتَّوَكَّاتِحَمَلَهُمْ﴾ [التوبة: ٩١ - ٩٢] هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (أن الله سبحانه قال: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ

(١) الترمذي (٨١٣)، ابن ماجه (٢٨٩٦)، والبيهقي (٣٢٧/٤) والطبري (٧٤٨٤) وابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ١٠١٧) وسنن سعيد بن منصور (٥١٨) وأحمد في مسائله لأبي داود (ص ٩٧) وعن ابنه عبد الله (٧٣٧)، والدارقطني في سننه (٢١٦/٢) والحاكم (٤٤٢/١) والحديث صحيح.

(٢) الطبري (٧٤٧٨)، ومسائل أحمد لأبي داود (ص ٩٧).

(٣) مرّ تخريجه.

(٤) شرح العمدة - الحج (١/١٢٤، ١٢٨ - ١٣٠، ١٢٦ - ١٢٧).

سَيِّئاً»، وقد فسر النبي ﷺ السبيل: بأنه الزاد والراحلة، وفي لفظ سئل ما يوجب الحج؟ قال: «الزاد والراحلة»، وفي لفظ: «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله تعالى ولم يحج فليمت إن شاء يهودياً، وإن شاء نصرانياً». فعلم بذلك أن الحج لا يوجهه إلا ملك الزاد والراحلة) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قالت طائفة من السلف: لما أنزل الله هذه الآية قال من قال من اليهود والنصارى: نحن مسلمون، فقال تعالى: ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾، فقالوا: لا نحج فقال تعالى: ﴿... وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ عَلِيمٌ﴾، فكل من لم ير حج البيت واجباً عليه مع الاستطاعة فهو كافر باتفاق المسلمين كما دل عليه القرآن واليهود والنصارى لا يرونه واجباً عليهم فهم من الكفار) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقوله: ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا...﴾، وقوله: ﴿فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَلَطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا﴾ [المجادلة: ٤]، فإن هذه الاستطاعة لو لم تكن [إلا] مقارنة للفعل، لم يجب الحج على من لم يحج، ولا وجب على من لم يتق الله أن يتق الله، ولكان كل من يصم الشهرين المتتابعين غير مستطيع للصيام، وهذا كله خلاف هذه النصوص وخلاف إجماع المسلمين) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وإنما وجب^(٤) في سورة آل عمران بقوله تعالى: ﴿... وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ﴾ هذا هو الذي اتفق عليه المسلمون: أنه يفيد إيجابه) ا.هـ^(٥).
وسئل ﷺ عن قوله تعالى: ﴿... وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ [آل عمران: ٩٧].

المراد به: أمنه بعد الموت من الكفر عند عرض الأديان؟ أم المراد به إذا أحدث حدثاً لا يقتص منه ما دام في الحرم؟

فأجاب: (التفسير المعروف في أن الله جعل الحرم بلداً آمناً قدراً وشرعاً، فكانوا في الجاهلية يسفك بعضهم دماء بعض خارج الحرم، فإذا دخلوا الحرم أو لقي الرجل قاتل أبيه لم يهجرأ حرمة ففي الإسلام كذلك وأشد.

(١) شرح العمدة - الحج (١/١٣٨).

(٢) الجواب الصحيح (٢/١٢٥).

(٣) منهاج السنة (١/٤٠٨).

(٤) يعني الحج.

(٥) مجموع الفتاوى (٢٧/٢٦٥).

لكن لو أصاب الرجل حداً خارج الحرم ثم لجأ إليه فهل يكون آمناً لا يقام عليه الحد فيه أم لا؟ فيه نزاع وأكثر السلف على أنه يكون آمناً، كما نقل عن ابن عمر وابن عباس وغيرهما وهو مذهب أبي حنيفة والإمام أحمد بن حنبل وغيرهما.

وقد استدلوا بهذه الآية ويقول النبي ﷺ: «إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض، وأنها لم تحل لأحد قبلي، ولا تحل لأحد بعدي، وإنما أحلت لي ساعة من نهار وقد عادت حرمتها فإن أحد ترخص بقتال رسول الله ﷺ، فقولوا: إنما أحلها الله لرسوله ولم يحلها لك»^(١).

ومعلوم أن الرسول إنما أبيع له فيها دم من كان مباحاً في الحل وقد بين أن ذلك أبيع له دون غيره.

والمراد بقوله: ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ﴾ [آل عمران: ٩٧] الحرم كله.

وأما عرض الأديان وقت الموت فيبتلى به بعض الناس دون بعض ومن لم يحج خيف عليه الموت على غير الإسلام، كما جاء في الحديث: «من ملك زاداً وراحلة تبلغه إلى بيت الله ثم لم يحج فليمت إن شاء يهودياً أو نصرانياً»^(٢) والله أعلم^(٣) ١. هـ.

﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨).

(وهو أن يقال: إن الله سبحانه ذم من ذمه من أهل الكفر على أنهم يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجاً.)

كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِدٌ عَلَىٰ مَا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٨) قُلْ يَتَاهَلِ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ تَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (٩٩).

وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقْعُدُوا بِكُلِّ صِرَاطٍ تُوعَدُونَ وَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَن ءَامَنَ بِهِ وَتَبِعُونَهَا عِوَجًا وَأَذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَفَرْتُمْ﴾ [الأعراف: ٨٦]، وقال:

(١) البخاري (٤٢٩٣). (٢) مرّ تخريجه.

(٣) مجموع الفتاوى (٢٠١/١٤ - ٢٠٢).

﴿رَبَّهُمْ أَلَا لَعَنَهُ اللَّهُ عَلَى الظَّالِمِينَ ﴿١٨﴾ الَّذِينَ يَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَبَغُونَهَا عِوَجًا ﴿١٩﴾﴾ [هود]، وقال: ﴿وَوَيْلٌ لِّلْكَافِرِينَ مِنَّ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٢٠﴾ الَّذِينَ يَسْتَحِبُّونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴿٢١﴾﴾ [إبراهيم].

ومعلوم أن سبيل الله هو ما بعث به رسله مما أمر به وأخبر عنه، فمن نهى الناس نهياً مجرداً عن تصديق رسل الله وطاعتهم، فقد صداهم عن سبيل الله (١) هـ. ١.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾

قال تعالى: ﴿إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾.

وسبب نزولها (٢) أنه أراد طائفة من اليهود إلقاء الفتنة بين المسلمين. فهم داخلون قطعاً، وإن كان الخطاب مطلقاً يتناول الطائفتين (٣) هـ. ١.

قال رحمه الله: (وقد وقع نزاع بين الأنصار مرة بسبب يهودي كان يذكرهم حروبهم في الجاهلية التي كانت بين الأوس والخزرج، حتى اختصموا وهموا بالقتال، حتى أنزل الله تعالى: ﴿إِن تَطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ ﴿١٠٠﴾﴾ وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾.

وقد ثبت في الصحيح أنهم كانوا في سفر فاقتتل رجل من المهاجرين ورجل من الأنصار، فقال المهاجري: يا للمهاجرين! وقال الأنصار: يا للأنصار! فقال النبي ﷺ: «أبدعوى الجاهلية وأنا بين ظهرانيكم، دعوها فإنها منتنة» (٤) هـ. ١.

﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدِ هَدَىٰ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٠١﴾﴾

وقال تعالى: ﴿وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنْتُمْ تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ ءَايَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ ﴿١٠١﴾﴾؟، فيعلم أن آيات الله والرسول تمنع [الكفر] (٥) هـ. ١.

(١) درء تعارض النقل والعقل (٥/٢١٠).

(٢) الطبري (٧٥٣٠)، وابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ١٠٦٥).

(٣) الجواب الصحيح (٢/٣٥٥ - ٣٥٦). (٤) البخاري (٤/٢٢٣)، ومسلم (٢٥٨٤).

(٥) منهاج السنة (٦/٣١٢). (٦) مجموع الفتاوى (٥/٢).

﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُونَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ (١١٦).

(قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ أفيقول مسلم: إن قطاع الطريق الذين يسفكون دماء الناس ويأخذون أموالهم اتقوا الله حق تقاته لكونهم لم يشركوا، وإن أهل الفواحش وشرب الخمر وظلم الناس اتقوا الله حق تقاته؟! (١).

وقد قال [السلف]: ابن مسعود^(٢) وغيره: كالحسن^(٣)، وعكرمة^(٤)، وقتادة^(٥)، ومقاتل^(٦): «حق تقاته: أن يُطاع فلا يعصى، وأن يُشكر فلا يُكفر، وأن يُذكر فلا يُنسى». وبعضهم يرويه عن ابن مسعود عن النبي ﷺ. وفي تفسير الوالبي عن ابن عباس قال: هو أن يجاهد العبد في الله حق جهاده، وأن لا تأخذه في الله لومة لائم، وأن يقوموا له بالقسط ولو على أنفسهم وأبائهم وأبنائهم^(٧).

وفي الآية الأخرى: ﴿فَأَنْقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن: ١٦] وهذه مفسرة لتلك. ومن قال من السلف هي ناسخة لها، فمعناه أنها رافعة لما يُظن من أن المراد من حق تقاته: ما يعجز البشر عنه؛ فإن الله لم يأمر بهذا قط. ومن قال: إن الله أمر به، فقد غلط. ولفظ النسخ في عُرف السلف يدخل فيه كل ما فيه نوع رفع لحكم، أو ظاهر، أو ظن دلالة حتى يسموا تخصيص العام نسخاً، ومنهم من يسمي الاستثناء نسخاً إذا تأخر نزوله.

وقد قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَعَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ ءَايَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (٥١) [الحج]، فهذا رفع لشيء ألقاه الشيطان ولم ينزله الله، لكن غايته أن يظن أن الله أنزله، وقد أخبر أنه نسخه) ا.هـ (٨).

(١) هذا القول رداً على من فسر ﴿حَقَّ تَقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢] الذي اتقوا الشرك.

(٢) ابن أبي حاتم (آل عمران - ١ - ١٠٧٩) والطبري (٧٥٣٦، ٧٥٣٧) وابن المبارك في «الزهد» (ص ٨) وابن أبي شيبة (١٦٤٠٠).

(٣) الطبري (٧٥٤٩) وابن أبي حاتم (آل عمران - ١ - ١٠٨٣) غير مسند.

(٤) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤٣١/١).

(٥) الطبري (٧٥٥١) وابن أبي حاتم (آل عمران - ١ - ١٠٨٥) بدون سند.

(٦) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤٣١/١).

(٧) ابن أبي حاتم (آل عمران - ١ - ١٠٩٠) والطبري (٧٥٥٢).

(٨) منهاج السنة (٢٨٩/٥ - ٢٩١).

﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَهُ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٩﴾﴾ .

(وأيضاً قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ أمرهم بالاجتماع ونهاهم عن الافتراق، فلو كانوا في حال الاجتماع قد يكونون مطيعين لله تارة وعاصين له أخرى، لم يجز أن يأمر به، إلا إذا كان اجتماعاً على طاعة، والله أمر به مطلقاً. ولأنه لو كان كذلك لم يكن فرق بين الاجتماع والافتراق، لأن الافتراق إذا كان معه طاعة كان مأموراً به، مثل أن يكون الناس نوعين: نوع يطيع الله ورسوله، ونوع يعصيه، فإنه يجب أن يكون مع المطيعين، وإن كان في ذلك فرقة، فلما أمرهم بالاجتماع دل على أنه مستلزم لطاعة الله) ١. هـ^(١).

قال رحمه الله: (وقال: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ وحبل الله كتابه) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد أمر الله بالجماعة والاتلاف، ونهى عن الفرقة والاختلاف. فقال تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا﴾ [الأنعام: ١٥٩] وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ [آل عمران: ١٠٥] ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله تعالى: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ قيل: حبل الله هو دين الإسلام، وقيل: القرآن، وقيل: عهده، وقيل: طاعته وأمره، وقيل جماعة المسلمين؛ وكل هذا حق) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءَهُ فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا﴾، فلما نهاهم عن التفرق مطلقاً دل ذلك على أنهم لا يجتمعون على باطل؛ إذ لو اجتمعوا على باطل لوجب اتباع الحق المتضمن لتفرقهم، وبين أنه ألف بين قلوبهم فأصبحوا بنعمته إخواناً. كما قال: ﴿هُوَ الَّذِي أَيْدَكَ بِصِرْهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ ﴿١٦٧﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ

(٢) مجموع الفتاوى (١٢٨/٢٥).

(١) منهاج السنة (٣٤٩/٨).

(٤) مجموع الفتاوى (٤٠/٧).

(٣) الرد على المنطقيين (٣٣٤).

حَكِيمٌ ﴿[الأنفال]، فإذا كانت قلوبهم متألفة غير مختلفة على أمر من الأمور كان ذلك من تمام نعمة الله عليهم؛ ومما من به عليهم، فلم يكن ذلك اجتماعاً على باطل؛ لأن الله تعالى أعلم بجميع الأمور) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: ﴿وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ فأمر بالاعتصام بحبل الله وهو كتابه، كما قال النبي ﷺ: «إن هذا القرآن حبل ممدود طرفه بيد الله وطرفه بأيديكم، فتمسكوا فإنكم لن تضلوا ما تمسكتم به»^(٢) وفي الحديث الآخر: «وهو حبل الله المتين»^(٣) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَكُنْتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُم مِّنْهَا﴾ فلولا إنقاذه لسقطوا، ومن كان واقفاً على شفير فهلك، فهلاكه موقوف على سقوطه، بخلاف ما إذا بان وبعد عن ذلك، فقد بعد عن الهلاك. فأصحابها كانوا قريبين إلى الهلاك والعذاب) ا.هـ^(٥).

﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾

(قال تعالى: ﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فخص هؤلاء بالفلاح كما خص المتقين الذين يؤمنون بالغيب ويقيمون الصلاة وينفقون مما رزقهم ويؤمنون بما أنزل إلى رسوله وما أنزل من قبله، ويوقنون بالآخرة وبالهدى والفلاح، فعلم بذلك أن الهدى والفلاح دائر حول ربع الرسالة وجوداً وهدىً) ا.هـ^(٦).

قال رحمه الله: (كقوله: ﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ الآية، فجميع الأمة تقوم مقامه في الدعوة؛ فهذا إجماعهم حجة) ا.هـ^(٧).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى: ﴿وَلَتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْعُرْفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ وهذه الآية بها استدلال المستدلون على أن

(١) مجموع الفتاوى (١٩/٩٢).

(٢) مسلم (٢٤٠٨) رواه ابن أبي شيبة في المصنف (٧/١٦٤) وقد اختلف في وصله وإرساله والصحيح أنه مرسل، وصححه الألباني رحمته الله في الصحيحة (٧١٣).

(٣) عن علي مرفوعاً، وقد مرّ تخريجه.

(٤) مجموع الفتاوى (١٩/٨٠).

(٥) مجموع الفتاوى (١١/٦٨٦).

(٦) مجموع الفتاوى (١٩/٩٧).

(٧) مجموع الفتاوى (٢٠/٨).

شيوخ الدين، يقتدى بهم في الدين، فمن لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر لم يكن من شيوخ الدين، ولا ممن يقتدى به) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (كما قال تعالى: ﴿أَتَقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا يَمُؤْنُونَ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا، إلى قوله: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾، فمن الأمر بالمعروف: الأمر بالائتلاف والاجتماع، والنهي عن الاختلاف والفرقة ومن النهي عن المنكر إقامة الحدود على من خرج من شريعة الله تعالى) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (والله سبحانه وتعالى كما أخبر بأنها تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، فقد أوجب ذلك على الكفاية منها بقوله: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾).

وإذا أخبر بوقوع الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر منها، لم يكن من شرط ذلك أن يصل أمر الأمر [ونهي] الناهي منها إلى كل مكلف في العالم، إذ ليس هذا من شرط تبليغ الرسالة، فكيف يشترط فيما هو من توابعها؟ بل الشرط أن يتمكن المكلفون من وصول ذلك إليهم، ثم إذا فرطوا فلم يسعوا في وصوله إليهم، مع قيام فاعله بما يجب عليه، كان التفريط منهم لا منه.

وكذلك وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: لا يجب على كل أحد بعينه، بل هو على الكفاية، كما دل عليه القرآن. ولما كان الجهاد من تمام ذلك، كان الجهاد أيضاً كذلك، فإذا لم يقم به من يقوم بواجبه أثم كل قادر بحسب قدرته؛ إذ هو واجب على كل إنسان بحسب قدرته.

كما قال النبي ﷺ: «من رأى منكم منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان»^(٣) ١. هـ^(٤).

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾

(وقال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾).

(٢) مجموع الفتاوى (٣/٤٢١ - ٤٢٢).

(٤) الاستقامة (٢/٢٠٧ - ٢٠٨).

(١) مجموع الفتاوى (١١/٥١٠).

(٣) رواه مسلم (٤٩).

فلا يكون فتنة وفرقة مع وجود الاجتهاد السائغ، بل مع نوع بغى) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال لأمة محمد: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١١٥)). فهذا بين أنهم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم البينات قبل محمد، وقد نهى الله أمته أن يكونوا مثلهم) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال سبحانه: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ وهم: اليهود والنصارى، الذين اختلفوا على أكثر من سبعين فرقة، ولهذا نهى النبي ﷺ عن متابعتهم في نفس التفرق والاختلاف، مع أنه ﷺ قد أخبر أن أمته: ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة. مع أن قوله: لا تكن مثل فلان، قد يعم مماثلته بطريق اللفظ أو المعنى، وإن لم يعم دل على أن جنس مخالفتهم، وترك مشابهتهم أمر مشروع: ودل على أنه - كلما بعد الرجل عن مشابهتهم فيما لم يشرع لنا - كان أبعد عن الوقوع في نفس المشابهة المنهي عنها، وهذه مصلحة جليلة) ا.هـ^(٣).

﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾^(١١٦).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(١١٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾ الآية، قال ابن عباس^(٤) وغيره: تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة [والفرقة] ا.هـ^(٥).

(وفيما رواه الترمذي وغيره^(٦) عن أبي أمامة أنه قال: «هم شر قتلى تحت أديم

(١) الاستقامة (٣١/١).

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٨٧/١ - ٨٨).

(٣) ابن أبي حاتم (آل عمران - ١ - ١١٣٩) واللالكائي في اعتقاد أهل السنة (٧٤) وروي عن الشعبي.

(٤) منهاج السنة (٤٦٧/٣) مجموع الفتاوى (٥١٥/٤) (١١٥/١٢) (٣٤١/١٢) (٢٩٢/٢٠) (٢٤/٢٤) (١٧٠ - ١٧١) (٣٥٨/٢٢) (٤٢٣/٢٨) (٢٥١/٢٢) (٤٨/١) (٣١٠/٣) الجواب الصحيح (٦/٤٩٠ - ٤٩١)، جامع المسائل (٢٣٣/٤).

(٥) المسند (٢٥٦/٥) وابنه في السنة (١٥٤٢)، الترمذي (٣٠٠٠) ابن ماجه (١٧٦)، البيهقي (٨/١٨٨)، الحاكم (١٤٩/٢)، الطبراني (٨٠٤٦) ابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ٩٧) والحديث حسنه ابن كثير والألباني وأقل ما يقال فيه أنه موقوف على أبي أمامة، وهو الراجح عندي والله أعلم.

السماء، خير قتلى من قتلوه، وذكر أنه سمع النبي ﷺ يقول ذلك مرات متعددة، وتلا فيهم قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ وقال: هؤلاء الذين كفروا بعد إيمانهم، وتلا فيهم قوله تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ﴾ [آل عمران: ٧] وقال: زاغوا فزيغ بهم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال ابن عباس وغيره: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة؛ وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٦) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِئْسَ لَكُمْ رَحْمَةً اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧) ﴿٢﴾.

وفي الترمذي عن أبي أمامة الباهلي عن النبي ﷺ في الخوارج «إنهم كلاب أهل النار» وقرأ هذه الآية: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ قال الإمام أحمد بن حنبل: صح الحديث في الخوارج من عشرة أوجه. وقد خرجها مسلم في صحيحه، وخرج البخاري طائفة منها. قال النبي ﷺ: «يحقر أحدكم صلاته مع صلاتهم. وصيامه مع صيامهم وقراءته مع قراءتهم. يقرؤون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية - وفي رواية - يقتلون أهل الإسلام ويدعون أهل الأوثان» ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (١٥) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ﴾ (١٦) وَأَمَّا الَّذِينَ أَبْيَضَتْ وُجُوهُهُمْ فَبِئْسَ لَكُمْ رَحْمَةً اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ (١٧) قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة وتسود وجوه أهل البدعة. ولهذا كان أبو أمامة الباهلي وغيره يتأولها في الخوارج) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ نزلت فيهم) ١. هـ^(٥).

﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَرَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١١٣).

(قال أبو هريرة^(٦) في قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ كنتم خير الناس

(١) الصارم المسلول (١٨٩). (٢) لم يثبت هذا الأثر عن ابن عباس.

(٣) مجموع الفتاوى (٣/٢٧٨ - ٢٧٩).

(٤) منهاج السنة (٥/١٣٣ - ١٣٤)، الصارم المسلول (١٩٣).

(٥) الصارم المسلول (١٩٣) وقوله فيهم أي في الخوارج.

(٦) البخاري (٦/٤٧).

للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة. يبذلون أموالهم وأنفسهم في الجهاد لنفع الناس، فهم خير الأمم للخلق) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (فالجهاد للكفار أصلح من هلاكهم بعذاب سماء من وجوه:

أحدها: أن ذلك أعظم في ثواب المؤمنين وأجرهم وعلو درجاتهم، لما يفعلونه من الجهاد في سبيل الله، لأن تكون كلمة الله هي العليا، ويكون الدين كله لله.

الثاني: أن ذلك أنفع للكفار أيضاً، فإنهم قد يؤمنون من الخوف، ومن أسر منهم وسيم من الصغار يُسلم أيضاً، وهذا من معنى قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال أبو هريرة: وكنتم خير الناس للناس تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة، فصارت الأمة بذلك خير أمة أخرجت للناس، وأفلح بذلك المقاتلون، وهذا هو مقصود الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهذا من معنى كون محمد ﷺ ما أرسل إلا رحمة للعالمين، فهو رحمة في حق كل أحد بحسبه حتى المكذبين له، هو في حقهم رحمة أعظم مما كان غيره) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وكذلك وصف الله الأمة بما وصف به نبيها، حيث قال: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ وقال: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١].

ولهذا قال أبو هريرة رضي الله عنه: «كنتم خير الناس للناس، تأتون بهم في الأقياد والسلاسل حتى تدخلوهم الجنة» فبين [الله] سبحانه أن هذه الأمة خير الأمم للناس، فهم أنفعهم لهم، وأعظمهم إحساناً إليهم، لأنهم كملوا أمر الناس بالمعروف ونهيه عن المنكر، من [جهة] الصفة والقدر، حيث أمروا بكل معروف ونهوا عن كل منكر لكل أحد، وأقاموا ذلك بالجهاد في سبيل الله بأنفسهم وأموالهم، وهذا كمال النفع للخلق) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (كما قال الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ قال أبو هريرة كنتم خير الناس للناس تأتون بهم في القيود والسلاسل حتى تدخلوهم الإسلام. فالمقصود بالجهاد، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر: هداية العباد لمصالح

(١) منهاج السنة (٥/٢٣٨) (٥/١٥٨) مجموع الفتاوى (١٠/٥٠٩) (١٦/٣١٦).

(٢) جامع الرسائل (٢/٣٣٨). (٣) الاستقامة (٢/٢٠٢ - ٢٠٣).

المعاش والمعاد بحسب الإمكان، فمن هداه الله سعد في الدنيا والآخرة، ومن لم يهتد كف الله ضرره عن غيره) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقد يقابل شرط الاجتماع من أحدهما كقوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ فإن مجموع الأمة خير للناس مجتمعين ومنفردين) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (فالدعوة إلى الله واجبة على من اتبعه، وهم أمته يدعون إلى الله، كما دعا إلى الله).

وكذلك يتضمن أمرهم بما أمر به، ونهيهم عما ينهى عنه، وإخبارهم بما أخبر به؛ إذ الدعوة تتضمن الأمر، وذلك يتناول الأمر بكل معروف، والنهي عن كل منكر.

وقد وصف أمته بذلك في غير موضع، كما وصفه بذلك فقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ الآية [التوبة: ٧١] وهذا الواجب واجب على مجموع الأمة، وهو الذي يسميه العلماء فرض كفاية إذا قام به طائفة منهم سقط عن الباقيين فالأمة كلها مخاطبة بفعل ذلك؛ ولكن إذا قامت به طائفة سقط عن الباقيين. قال تعالى: ﴿وَلَتَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران] ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وأما إجماع الأمة فهو حق، لا تجتمع الأمة - والله الحمد - على ضلالة، كما وصفها الله بذلك في الكتاب والسنة فقال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾، وهذا وصف لهم بأنهم يأمرون بكل معروف وينهون عن كل منكر كما وصف نبيهم بذلك في قوله: ﴿الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْنُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وبذلك وصف المؤمنين في قوله: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [التوبة: ٧١]؛ فلو قالت الأمة في الدين بما هو ضلال لكانت لم تأمر بالمعروف في ذلك ولم تنه عن المنكر فيه) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (ومن استقرأ أخبار العالم في جميع الفرق تبين له أنه لم يكن قط طائفة أعظم اتفاقاً على الهدى والرشد، وأبعد عن الفتنة والتفرق والاختلاف من

(١) مجموع الفتاوى (١٦٠/٣٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٢٨/٣١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٦٥/١٥).

(٤) مجموع الفتاوى (١٧٦/١٩ - ١٧٧).

أصحاب رسول الله ﷺ، الذين هم خير الخلق بشهادة الله لهم بذلك، إذ يقول تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (١) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وأفضل الأمم أمة محمد ﷺ. قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ أَصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ [فاطر: ٣٢] وقال النبي ﷺ في الحديث الذي في المسند: «أنتم توفون سبعين أمة، أنتم خيرها وأكرمها على الله» (٢) هـ. ١. (٣).

وقال رحمه الله: (كقوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾، فهذا يقتضي أنهم يأمرون بكل معروف، وينهون عن كل منكر. ومن المعلوم أن إيجاب ما أوجبه الله، وتحريم ما حرمه الله، هو من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، بل هو نفسه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فيجب أن يوجبوا كل ما أوجبه الله ورسوله، ويحرموا كل ما حرمه الله ورسوله، وحينئذ فيمتنع أن يوجبوا حراماً ويحرموا واجباً بالضرورة، فإنه لا يجوز عليهم السكوت عن الحق من ذلك، فكيف يجوز السكوت عن الحق والتكلم بنقيضه من الباطل؟ ولو فعلوا ذلك لكانوا قد أمروا بالمنكر ونهوا عن المعروف، وهو خلاف النص) (٤) هـ. ١.

وقال رحمه الله: (وقيل في قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٩٩] نزلت في ابن سلام، وأصحابه كما نقل عن ابن زيد غيره، وبعضهم قال في مؤمني أهل الكتاب، فإن أراد من كان في الظاهر معدوداً منهم فهو القول الأول وإن أراد العموم فهو الثاني، وهو ضعيف فإن هؤلاء لا يقال فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ لأنهم من جملة الصحابة، ولهم أجور مثل أجور المؤمنين، بل يؤتون أجرهم مرتين، وهم ملتزمون بجميع الشرائع فأمرهم أعظم من أن يقال لهم أجرهم عند ربهم وأيضاً فإن أمرهم ظاهر معروف فأى فائدة في الإخبار بهم، وهذا مما يبين أن المظهرين للإسلام - فيهم منافق لا يصلى عليه كما نزل في ابن أبي، وأمثاله، وأن من هو في أرض الكفر قد يكون

(١) منهاج السنة (٦/٣٦٤).

(٢) الترمذي (٣٠٠١) وابن ماجه (٤٢٨٧) وأحمد (٣/٥) والطبري (٤٢٨٧) الزهد لابن المبارك (ص ١١٤) تفسير ابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ١١٥٦) المستدرک (٤/٨٤) وإسناده حسن، والله أعلم.

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٢٢١).

(٤) منهاج السنة (٨/٣٤٥ - ٣٤٦).

مؤمناً يصلى عليه، كالتجاشي، وشبه هذا قوله: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلَ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾ الآية قيل: ابن سلام، وأصحابه) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال الله تعالى لنا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ وَأَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا أَنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذُنُوبِكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا، إلى قوله تعالى: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾، إلى قوله: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، فأمرنا بملازمة الإسلام إلى الممات كما أمر الأنبياء جميعهم بالإسلام، وأن نعتصم بحبله جميعاً ولا نتفرق، ونهانا أن نكون كالذين تفرقوا واختلَفوا من بعد ما جاءهم البيّنات، وذكر أنه تبيض وجوه وتسود وجوه، قال ابن عباس: تبيض وجوه أهل السنة والجماعة وتسود وجوه أهل البدعة والفرقة، وذكر أنه يقال لهم: ﴿أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾، وهذا عائد إلى قوله: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ فأمر بملازمة الإسلام، وبين أن المسودة وجوههم أهل التفرق والاختلاف، يقال لهم: أكفرتم بعد إيمانكم؟ وهذا دليل على كفرهم وارتدادهم، وقد تأولها الصحابة في الخوارج) ا.هـ^(٢).

﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ وَبِأَوِّ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (١٣٧).

(ولما كان أصل دين اليهود الكبر عاقبهم بالذلة: ﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا﴾) ا.هـ^(٣).

قال رحمه الله: (﴿ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ أَيْنَ مَا تَفَقَّوْا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ النَّاسِ﴾ فيين سبحانه أنهم أينما ثقفوا فعليهم الذلة إلا مع العهد، فعلم أن من له عهد وحبل لا ذلة عليه وإن كانت عليه المسكنة فإن المسكنة قد تكون مع عدم الذلة) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قوله تعالى: ﴿وَبِأَوِّ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ﴾ وهذا بيان أن اليهود مغضوب عليهم) ا.هـ^(٥).

(١) مؤلفات الشيخ محمد بن عبد الوهاب (٩/١٤٥).

(٢) مجموع الفتاوى (١٩/١١٤ - ١١٥).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/٦٢٨).

(٤) الصارم المسلول (٢٧).

(٥) اقتضاء الصراط (١/٦٦).

﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آتِيلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ ﴿١١٠﴾ .

(﴿ لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آتِيلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ ﴿١١٠﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿١١٤﴾ ، وهذه الآية قيل: إنها نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه. وقيل: أن قوله: ﴿ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]. هو عبد الله بن سلام وأصحابه.

وهذا والله أعلم من نمط الذي قبله؛ فإن هؤلاء ما بقوا من أهل الكتاب، وإنما المقصود من هو منهم في الظاهر وهو مؤمن؛ لكن لا يقدر على ما يقدر عليه المؤمنون المهاجرون المجاهدون، كمؤمن آل فرعون من آل فرعون وهو مؤمن ولهذا قال تعالى: ﴿ وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ ﴾ [غافر: ٢٨]؟ فهو من آل فرعون وهو مؤمن.

وكذلك هؤلاء منهم المؤمنون؛ ولهذا قال: ﴿ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ وقد قال قبل هذا: ﴿ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [آل عمران: ١١٠]، ثم قال: ﴿ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذى ﴾ ، وهذا عائد إليهم جميعهم لا إلى أكثرهم؛ ولهذا قال: ﴿ وَإِنْ يُقْتَلُوا يُوَلُّوكمُ الْآدْبَارَ ثُمَّ لَا يُضْرَبُونَ ﴾ [آل عمران: ١١١] (١). هـ.

وفي رده على النصارى لاحتجاجهم بهذه الآية:

(وأما قوله تعالى: ﴿ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَاتَاءَ آتِيلٍ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴾ ﴿١١٠﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴾ ﴿١١٤﴾ .

فهذه الآية لا اختصاص فيها للنصارى، بل هي مذكورة بعد قوله تعالى: ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ﴿١١٤﴾ لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أذى . وَإِنْ يُقْتَلُوا يُوَلُّوكمُ الْآدْبَارَ ثُمَّ لَا يُضْرَبُونَ ﴾ ﴿١١٥﴾ ضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الدَّلَّةُ آيَةً مَا تُفْقَهُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِّنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مِّنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَضَرَبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةَ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ

بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ ﴿٦٦﴾ ، ثم قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مَن أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ...﴾ .

ومعلوم أن الصفة المذكورة في قوله: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ [البقرة: ٦١]. صفة اليهود، وكذلك قوله: ﴿وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ﴾ .
فقوله: عقب ذلك: ﴿مِنَ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ .

لا بد أن يكون متناولاً لليهود، ثم قد اتفق المسلمون والنصارى على أن اليهود مع كفرهم بالمسيح ومحمد ﷺ ليس فيهم مؤمن، وهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد ﷺ، والآية إذا تناولت النصارى كان حكمهم في ذلك حكم اليهود، والله تعالى إنما أتى على من آمن من أهل الكتاب، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٦٩﴾﴾ [آل عمران].

وقد ذكر أكثر العلماء أن هذه الآية الأخرى في آل عمران نزلت في النجاشي ونحوه ممن آمن بالنبي ﷺ لكنه لم تمكنه الهجرة إلى النبي ﷺ، ولا العمل بشرائع الإسلام لكون أهل بلده نصارى لا يوافقونه على إظهار شرائع الإسلام، وقد قيل: إن النبي ﷺ إنما صلى عليه لما مات؛ لأجل هذا، فإنه لم يكن هناك من يظهر الصلاة عليه في جماعة كثيرة ظاهرة، كما يصلي المسلمون على جنازتهم.

ولهذا جعل من أهل الكتاب مع كونه آمن بالنبي ﷺ بمنزلة من يؤمن بالنبي ﷺ في بلاد الحرب، ولا يتمكن من الهجرة إلى دار الإسلام، ولا يمكنه العمل بشرائع الإسلام الظاهرة، بل يعمل ما يمكنه ويسقط عنه ما يعجز عنه، كما قال تعالى: ﴿فَإِن كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ عَدُوٌّ لَّكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُّؤْمِنَةٌ...﴾ [النساء: ٩٢].

فقد يكون الرجل في الظاهر من الكفار، وهو في الباطن مؤمن، كما كان مؤمن آل فرعون.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُضَيِّبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدْكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ ﴿٨١﴾﴾ يَقْوَمُ لَكُمْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ظَاهِرِينَ فِي الْأَرْضِ فَمَنْ يَبْصُرْنَا مِنْ بَأْسِ اللَّهِ إِنْ جَاءَنَا قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٨٢﴾﴾ وَقَالَ الَّذِي ءَامَنَ يَقْوَمُ إِلَيَّ أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِثْلَ يَوْمِ الْأَحْزَابِ

﴿٣٠﴾ مِثْلَ دَابِّ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَنَمُودَ وَالَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظَلْمًا لِلْعِبَادِ ﴿٣١﴾ وَيَقَوْمِ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لِلَّهِمْ إِنِّي رَجُلٌ غَرَّبْتُكُمْ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَنْتُمْ كَذِبُونَ ﴿٣٢﴾ وَأَقْرَبَ مِنْكُمْ مَثَلُ قَوْمِ لُوطٍ إِذْ قَالَ لِلَّهِمْ إِنِّي رَجُلٌ غَرَّبْتُكُمْ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِبَيِّنَاتٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَنْتُمْ كَذِبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي سَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَنْ يَبْعَثَ اللَّهُ مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿٣٤﴾ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَتْهُمْ أَنْتَهُمْ كَبْرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ ءَامَنُوا كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴿٣٥﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَنْهَكُنْ ابْنِي لِي صِرَاحًا لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ فَأَطِيعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لِأَظُنُّهُ كَذِبًا وَكَذَلِكَ زُيِّنَ لِفِرْعَوْنَ سُوءَ عَمَلِهِ وَصَدَّ عَنِ السَّبِيلِ وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ الَّذِينَ ءَامَنَ يَقَوْمِ اتَّبِعُونِ أَهْدِكُمْ سَبِيلَ الرَّشَادِ ﴿٣٨﴾ يَقَوْمِ إِنَّمَا هَؤُلَاءِ أَلْحِيوَةُ الدُّنْيَا مَتَّعٌ وَإِنَّ الْآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ ﴿٣٩﴾ مَنْ عَمِلَ سَيِّئَةً فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِمَّنْ ذَكَرَ أَوْ أُتِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ يُرْفَعُونَ فِيهَا بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٤٠﴾ وَيَقَوْمِ مَا لِي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجْوَةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ﴿٤١﴾ تَدْعُونَنِي لِأَكْفُرَ بِاللَّهِ وَأُشْرِكَ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعَزِيزِ الْفَعْلَرِ ﴿٤٢﴾ لَا جَرَمَ أَنَّمَا تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَكُمْ دَعْوَةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ أَصْحَابُ النَّارِ ﴿٤٣﴾ فَسَتَذَكَّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفُوضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ ﴿٤٤﴾ فَوَقَّهَ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِحَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ [غافر].

فقد أخبر سبحانه أنه حاق بآل فرعون سوء العذاب، وأخبر أنه كان من آل فرعون رجل مؤمن يكتنم إيمانه وأنه خاطبهم بالخطاب الذي ذكره، فهو من آل فرعون باعتبار النسب والجنس والظاهر، وليس هو من آل فرعون الذين يدخلون أشد العذاب وكذلك امرأة فرعون ليست من آل فرعون هؤلاء، قال الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ ءَامَنُوا امْرَأَتَ فِرْعَوْنَ إِذْ قَالَتْ رَبِّ ابْنِي لِي عِنْدَكَ بَيْتًا فِي الْجَنَّةِ وَنَجِّنِي مِنْ فِرْعَوْنَ وَعَمَلِهِ وَنَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿١١﴾﴾ [التحریم].

وامرأة الرجل من آله بدليل قوله: ﴿إِلَّا ءَالَ لُوطٍ إِنَّا لَمُنَجُّوهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾﴾ إِلَّا امْرَأَتَهُ فَذَرَّنَا إِنَّمَا كَانَتْ هِيَ مِنَ الْغَابِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [الحجر].

وهكذا أهل الكتاب فيهم من هو في الظاهر منهم، وهو في الباطن يؤمن بالله ورسوله محمد ﷺ، يعمل بما يقدر عليه ويسقط عنه ما يعجز عنه علماً وعملاً: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]، وهو عاجز عن الهجرة إلى دار الإسلام،

كعجز النجاشي، وكما أن الذين يظهرون الإسلام فيهم من هم في الظاهر مسلمون، وفيهم من هو منافق كافر في الباطن، إما يهودي، وإما نصراني، وإما مشرك، وإما معطل.

كذلك في أهل الكتاب والمشركين، من هو في الظاهر منهم، ومن هو في الباطن من أهل الإيمان بمحمد ﷺ، يفعل ما يقدر على علمه وعمله، ويسقط ما يعجز عنه في ذلك. وفي حديث حماد بن سلمة عن ثابت، عن أنس قال: لما مات النجاشي قال النبي ﷺ: «استغفروا لأخيكم» فقال بعض القوم: تأمرنا أن نستغفر لهذا العرج، يموت بأرض الحبشة. فنزلت: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ...﴾ [آل عمران: ١٩٩].

ذكره ابن أبي حاتم وغيره بأسانيدهم، وذكره حماد بن سلمة، عن ثابت، عن الحسن البصري أن رسول الله ﷺ قال: «استغفروا لأخيكم النجاشي» فذكر مثله^(١).

وكذلك ذكر طائفة من المفسرين، عن جابر بن عبد الله وابن عباس وأنس وقتادة أنهم قالوا: نزلت هذه الآية في النجاشي ملك الحبشة، واسمه أصحمة. وهو بالعربية عطية. وذلك أنه لما مات نعاه جبريل للنبي ﷺ في اليوم الذي مات فيه، فقال رسول الله ﷺ لأصحابه: «اخرجوا فصلوا على أخ لكم مات بغير أرضكم» قالوا: من هو؟ قال: «النجاشي» فخرج رسول الله ﷺ إلى البقيع. وزاد بعضهم وكشف له من المدينة إلى أرض الحبشة، فأبصر سرير النجاشي وصلى عليه، وكبر أربع تكبيرات، واستغفر له، وقال لأصحابه: «استغفروا له». فقال المنافقون: انظروا إلى هذا يصلي على عرج حبشي نصراني لم يره قط: وليس على دينه. فأنزل الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

وقد ذهب طائفة من العلماء إلى أنها نزلت فيمن كان على دين المسيح ﷺ إلى أن بعث محمد ﷺ فآمن به، كما نقل ذلك عن عطاء^(٢).

وذهب طائفة إلى أنها نزلت في مؤمني أهل الكتاب كلهم^(٣).

(١) أحمد (٧/٤) وابن أبي حاتم (آل عمران ٢ - ٢٠٥٢)، وفيه ضعف واضح، والصلاة على النجاشي وردت من غير سبب نزول الآية كما في البخاري (٣٨٧٧) ومسلم (٢٩٥٢).

(٢) هو القول الرابع عند ابن الجوزي في «تفسيره» (١/٥٣٣).

(٣) هو القول الثاني في «زاد المسير» (١/٥٣٣).

والقول الأول^(١) أجود، فإن من آمن بمحمد ﷺ وأظهر الإيمان به، وهو من أهل دار الإسلام، يعمل ما يعمل المسلمون ظاهراً وباطناً فهذا من المؤمنين وإن كان قبل ذلك مشركاً يعبد الأوثان، فكيف إذا كان كتابياً؟ وهذا مثل عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي وغيرهما، وهؤلاء لا يقال: إنهم من أهل الكتاب، كما لا يقال في المهاجرين والأنصار: إنهم من المشركين وعباد الأوثان، ولا يمكن أحد من المنافقين ولا من غيرهم من أن يصلي على واحد منهم، بخلاف من هو في الظاهر منهم، وفي الباطن من المؤمنين.

وفي بلاد النصرى من هذا النوع خلق كثير، يكتمون إيمانهم، إما مطلقاً، وإما يكتُمونه عن العامة ويظهرونه لخاصتهم، وهؤلاء قد يتناولهم قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ...﴾ الآية.

فهؤلاء لا يدعون الإيمان بكتاب الله ورسوله لأجل مال يأخذونه، كما يفعل كثير من الأحرار والرهبان، الذين يأكلون أموال الناس بالباطل ويصدونهم عن سبيل الله، فيمنعونهم الإيمان بمحمد ﷺ.

وأما قوله تعالى: ﴿مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾ يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١١٤﴾﴾.

فهذه الآية تتناول اليهود أقوى مما تتناول النصرى، ونظيرها قوله تعالى: ﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَى أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٦٩﴾﴾ [الأعراف].

وهذا مدح مطلق لمن تمسك بالتوراة، ليس في ذلك مدح لمن كذب المسيح، ولا فيها مدح لمن كذب محمداً ﷺ.

وهذا الكلام يفسره سياق الكلام، فإنه قال تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ...﴾، ثم قال تعالى: ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِمَّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

فقد جعلهم نوعين: نوعاً مؤمنين ونوعاً فاسقين وهم أكثرهم وقوله تعالى: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

(١) أي أنها في النجاشي.

يتناول من كان منهم مؤمناً قبل مبعث محمد ﷺ، كما يتناولهم قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً﴾ [الحديد: ٢٧]، إلى قوله: ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد: ٢٧]، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النَّبُوَّةَ وَالكِتَابَ فَمِنَ هُنَّ مَنَّهُنَّ مَهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [الحديد].

وقوله عن إبراهيم الخليل: ﴿وَبَرَكْنَا عَلَيْهِ وَعَلَىٰ إِسْحَاقَ وَمِن ذُرِّيَّتِهِمَا مُحْسِنٌ وَظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ مُبِينٌ﴾ [الصافات]، ثم لما قال: ﴿أَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٥٩]، قال: ﴿لَنْ يَضُرَّكُمْ وَلَا أَذَىٰ مِنْ اللَّهِ وَحَبْلِ مِنَ الْنَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [١٣١].

وضرب الذلة عليهم أيما ثقفوا ومباؤهم بغضب الله وما ذكر معه من قتل الأنبياء بغير حق وعصيانهم واعتدائهم كان اليهود متصفين به قبل مبعث محمد ﷺ كما قال تعالى في سورة البقرة: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِشَاطِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِيهَا وَبَصِلَهَا قَالَ أَنْتَسِدِلْتُ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ أَهْبَطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مِمَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ [البقرة].

ثم قال بعد ذلك: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّادِقِينَ وَالصَّابِرِينَ مِنَ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [١٣١]. [البقرة].

فتناولت هذه الآية من كان من أهل هذه الملل الأربع متمسكاً بها قبل النسخ بغير تبديل، كذلك آية آل عمران لما وصف أهل الكتاب بما كانوا متصفاً به أكثرهم قبل محمد ﷺ من الكفر، قال: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللَّهِ ءَالَهُ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ [١٣٢] يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ يُذِخِرُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [١٣٤].

وهذا يتناول من كان متصفاً منهم بهذا قبل النسخ، فإنهم كانوا على الدين الحق الذي لم يبدل ولم ينسخ، كما قال في الأعراف.

﴿وَمِن قَوْمِ مُوسَىٰ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف].

وقوله: ﴿وَقَطَعْنَاهُمْ فِي الْأَرْضِ أُمَّمًا مِّنْهُمْ الْأَصْلِحُونَ وَمِنْهُمْ دُونَ ذَلِكَ وَبَلَوْنَاهُمْ بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿١٦٨﴾ فَخَلَفَ مِنْ بَدْيِهِمْ خَلْفٌ وَرَثُوا الْكِتَابَ يَأْخُذُونَ عَرَضَ هَذَا الْأَدْنَى وَيَقُولُونَ سَيُغْفَرُ لَنَا وَإِنْ يَأْتِهِمْ عَرَضٌ مِّثْلَهُ يَأْخُذُوهُ أَلَمْ يُؤْخَذْ عَلَيْهِمْ مِيثَاقُ الْكِتَابِ أَنْ لَا يَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ وَدَرَسُوا مَا فِيهِ وَالِدَارُ الْأُخْرَىٰ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يُتَّقُونَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿١٦٩﴾ وَالَّذِينَ يُسَيِّئُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ إِنَّا لَا نَضْمِعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٧٠﴾﴾ [الأعراف].

وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ خَلَقْنَا أُمَّةً يَهْدُونَ بِالْحَقِّ وَبِهِ يَعْدِلُونَ ﴿١٦٨﴾﴾ [الأعراف].

فهذا خبر من الله عن من كان متصفاً بهذا الوصف قبل مبعث محمد ﷺ، ومن أدرك من هؤلاء محمداً ﷺ، فأمن به كان له أجره مرتين) ١. هـ^(١).

﴿يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ أُولَٰئِكَ سَيَرْحَمُهُ اللَّهُ فِي الْآخِرَاتِ وَأُولَٰئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٦٩﴾ وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَنْ يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ ﴿١٧٠﴾﴾.

(وقد روى عبد الله بن مسعود قال: «آخر رسول الله ﷺ صلاة العشاء، ثم خرج إلى المسجد، فإذا الناس ينتظرون الصلاة فقال: أما إنه ليس من أهل هذه الأديان أحد يذكر الله هذه الساعة غيركم، فأنزلت هذه الآيات ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ حتى بلغ ﴿وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾ رواه أحمد والترمذي^(٢) ١. هـ^(٣).

﴿هَتَأْتُمْ أَوْلَاءَ يُحِبُّوهُمْ وَلَا يُحِبُّونَكُمْ وَالْكِتَابَ كُلَّهُ وَإِذَا لَقوُكُمْ قَالُوا آمَنَّا وَإِذَا خَلَوْا عَضُوا عَلَيْكُمُ الْأَنْبَالَ مِنَ الْغَيْظِ قُلْ مَوْتُوا بِغَيْظِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٦٩﴾﴾.

(بل لفظ الذات في الأصل تأنيث (ذو) كقوله: ﴿وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ [الأنفال: ١]، وقوله: ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ وهي تستلزم الإضافة، ولكن المتكلمون قطعوه عن الإضافة وعرفوه فقالوا: (الذات) وحقيقته التي لها صفات، فحيث قيل لفظ (الذات) كان مستلزماً للصفات) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله في قوله: ﴿عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾: (عليم بالخواطر ونحوها التي هي صاحبة الصدور)^(٥).

(١) الجواب الصحيح (٢/٢٠١ - ٢١٣).

(٢) الحديث رواه الترمذي (١٦٧)، وأحمد (١/٣٩٦) والحديث صحيح.

(٣) شرح العمدة - الصلاة - (٢١٢ - ٢١٣). (٤) الصفدية (١/١٠٩).

(٥) مجموع الفتاوى (٦/٣٤٢).

﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوْهَتْمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَقَوُّوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ ﴿١٦٠﴾﴾ .

(وقد قال تعالى: ﴿يَتَأْتِيَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا بَطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأُولُونَكُمْ خِيَالًا﴾ إلى قوله: ﴿وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَقَوُّوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ فبين سبحانه أنه مع التقوى والصبر لا يضر المؤمنين كيد أعدائهم المنافقين) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصِيرُوا وَتَقَوُّوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا﴾ الآية. وكذلك في آخر السورة وفي وسطها، وفي يوسف ﴿إِنَّهُ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ﴾ الآية [يوسف: ٩٠]، فالصبر يدخل فيه الصبر على المقدور، والتقوى فعل المأمور وترك المحذور، فمن جمع هذا وهذا فقد جمع له الخير، بخلاف من عكس) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِنْ تَمَسَّكُمْ حَسَنَةٌ سَوْهَتْمْ وَإِنْ تُصِبْكُمْ سَيِّئَةٌ يَفْرَحُوا بِهَا﴾ فالحسنات والسيئات يراد بها المسار والمضار، ويراد بها الطاعات والمعاصي) ١. هـ^(٣).

﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٦١﴾﴾ .

(وأنزل الله فيها^(٤) شطراً من سورة آل عمران، من قوله: ﴿وَإِذْ عَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقْعِدَ لِلْقِتَالِ﴾ وقال فيها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾﴾ وقال فيها: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُونَهُمْ بِأَذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَاكُمْ مَّا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفْنَا عَنْهُمْ غَيْبَتَهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٢﴾﴾ وقال فيها: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْنَا إِنَّ هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾﴾ ، وكان الشيطان قد نطق في الناس: أن محمداً قد قتل^(٥) ، فمنهم من تزلزل لذلك فهرب ومنهم من ثبت فقاتل. فقال الله تعالى:

(١) جامع الرسائل (١٣٧/٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٧٧/٨، ٣٢٩) (٤٥٦/١٠).

(٣) مجموع الفتاوى (٤٤/١٠ - ٤٥) والمقصود هنا المعنى الأول.

(٤) أي معركة أحد.

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ١٥٥٢) عن عبد الرحمن بن عوف، وراجع لباب النقول (ص ٥٩).

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران] ١٠١ هـ. (١).

﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٤٣﴾﴾.

(ولهذا قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ الآية؛ فإن هؤلاء تجمعهم دعوة الإسلام والجنس) ١٠١ هـ. (٢).

(وقال في قصة أحد: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٤٤﴾ بَلَىٰ إِنْ نَصَبُوا وَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [آل عمران] فإن هذا أظن فيه قولين:

أحدهما: أنه متعلق بأحد؛ لقوله بعد ذلك: ﴿لَيَقْطَعَنَّ لَكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ قَدْ أُلْمِتُمْ فِيهَا وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٧] ولأنه وعد مقيد، وقوله فيه: ﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ﴾ [الأنفال: ١٠] يقتضي خصوص البشرى بهم) ١٠١ هـ. (٣).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمِدَّكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُنَزَّلِينَ ﴿١٤٤﴾ بَلَىٰ إِنْ نَصَبُوا وَتَّقُوا وَيَأْتُوكُمْ مِنْ فُورِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ سورة آل عمران، وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبُّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِآلَافٍ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنْ مَعَكُمْ فَتُنزِلُوا إِلَيْهِ مِنَ السَّمَاءِ مَائِدَاتٍ﴾ [الأنفال: ٩ - ١٢]، فقد أخبر أنه أمدهم بجنود من الملائكة تنصرهم، ففي تلك الآيات أخبر بنزول الملائكة بالعلم والوحي، وفي هذه الآيات أخبر بنزولها بالنصر والقدرة، وهذا يبين أن ما كان يحصل للرسول من العلم والقدرة من المكاشفة والتأثير في العالم حاصل بما هو خارج عن قوى نفسه من العلم الذي تنزل به الملائكة والنصر الذي تنزل به الملائكة) ١٠١ هـ. (٤).

وقال في معنى ربط الصبر بالتقوى:

(وقد قال تعالى: ﴿قَالُوا إِنْ تَكُنْ لِآلَتِ يُونُسَ قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي قَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا إِنَّهُ مَنْ يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٩٦﴾﴾ [يوسف] وقال تعالى:

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٤٣٠ - ٤٣١).

(٢) منهاج السنة (٨/٥٢١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥/٣٧ - ٣٨) ولم يذكر القول الثاني.

(٤) الصفدية (١/٢٠٥ - ٢٠٦).

﴿وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا لَا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئاً﴾ وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ وقال تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ [آل عمران: ١٨٦] فذكر الصبر والتقوى في هذه المواضع الأربعة، فالصبر يدخل فيه الصبر على المقدور، والتقوى يدخل فيها فعل المأمور وترك المحذور) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا وَيَأْتُوكُم مِّن فَوْرِهِمْ هَذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُسَوِّمِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ فبين أنه مع الصبر والتقوى يمدهم بالملائكة وينصرهم على أعدائهم الذين يقاتلونهم) ١. هـ^(٢) (٣).

﴿وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِينَ قُلُوبِكُمْ بِهِ وَمَا النُّصْرُ إِلَّا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴿١٢٦﴾﴾ .

(قوله تعالى: ﴿وَمَا النُّصْرُ إِلَّا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ﴾ فهذا النصر المنفي في هذه الآية عن غير الله لم يثبتته الله لغيره قط؛ والذي ذكره في قوله: ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النُّصْرُ﴾ [الأنفال: ٧٢] ليس هذا هو ذلك، يبين هذا أنه قال: ﴿إِذْ تَقُولُ لِلْمُؤْمِنِينَ أَلَنْ يَكْفِيَكُمْ أَنْ يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِثَلَاثَةِ آلَافٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُنزَلِينَ ﴿١٢٤﴾﴾ بَلَىٰ إِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا﴾ إلى أن قال: ﴿وَمَا النُّصْرُ إِلَّا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدِّدٌ بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرَدِّفِينَ ﴿٦﴾﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ لَكُمْ وَلِنُظْمِينَ قُلُوبِكُمْ وَمَا النُّصْرُ إِلَّا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٢٦﴾﴾ [الأنفال] فهو سبحانه وتعالى قد أمدهم بالملائكة، ومعلوم أن نصر الملائكة لهم أعظم من النصر الذي أمروا به في قوله: ﴿وَإِنْ أَسْتَضْرُّوكُمْ فِي الَّذِينَ فَعَلَيْكُمْ النُّصْرُ﴾ فإن هؤلاء غاية ما يفعلونه دون ما تفعله الملائكة، ثم بين أنه وإن نزلت الملائكة وقاتلت فالنصر لا يحصل بمجرد هذا إن لم يحدث الله ما به ينتصر المؤمنون، وذلك لأن المقاتل من الملائكة والبشر غاية قدرته (حركة نفسه) ١. هـ^(٤).

﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ .

(وأما الدعاء على معينين كما كان النبي ﷺ: يلعن فلاناً وفلاناً فهذا قد روي أنه

(١) مجموع الفتاوى (٢/٣٢٧).
 (٢) جامع الرسائل (٢/١٣٧).
 (٣) مجموع الفتاوى (١٠/٥٠٨).
 (٤) الاستغاثة (٢٢٠).

منسوخ بقوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ كما قد بسط الكلام على ذلك في غير هذا الموضوع فيما كتبت في قلعة مصر) ١. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وليس لأحد أن يحتج على النسخ بما في الصحيحين عن ابن عمر أنه سمع رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخير من الفجر يقول: «اللهم العن فلاناً وفلاناً وفلاناً»^(٢) بعد ما يقول: «سمع الله لمن حمده؛ ربنا ولك الحمد»؛ فأنزل الله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛ فإن هذا إنما يدل على ترك اللعنة لهم؛ لكونه ليس له من الأمر شيء لجواز توبتهم، وهذا إذا كان نهياً فلا فرق فيه بين الصلاة وخارج الصلاة والكلام إنما هو في الدعاء الجائر خارج الصلاة: كالدعاء لمعينين مستضعفين، والدعاء على معينين من الكفار بالنصرة عليهم؛ لا باللعنة ونحو ذلك) ١. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وأما قول القائل: إن قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ عين الإثبات للنبي ﷺ كقوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ [الفتح: ١٠]، فهذا بناء على قول أهل الوحدة والاتحاد، وجعل معنى قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ أن فعلك هو فعل الله لعدم المغايرة، وهذا ضلال عظيم من وجوه:

أحدها: أن قوله: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ نزل في سياق قوله: ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْتُمَهُمْ فَيَنْقَلِبُوا حَآبِئِينَ﴾ [١٧] لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبُهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ﴾؛

وقد ثبت في الصحيح أن النبي ﷺ كان يدعو على قوم من الكفار أو يلعنهم في القنوت، فلما أنزل الله هذه الآية: ترك ذلك، فعلم أن معناها إفراد الرب تعالى بالأمر، وأنه ليس لغيره أمر؛ بل إن شاء الله تعالى قطع طرفاً من الكفار، وإن شاء كتبهم فانقلبوا بالخسارة، وإن شاء تاب عليهم وإن شاء عذبهم.

وهذا كما قال في الآية الأخرى: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبِ لَأَسْتَكْبَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِيَ السُّوءُ﴾ [الأعراف: ١٨٨] ونحو ذلك قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَان لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هُنَا﴾ [آل عمران: ١٥٤] ﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ [آل عمران: ١٥٤].

(٢) البخاري (٣٦٦/٧ - الفتح).

(١) مجموع الفتاوى (٣٣٥/٨).

(٣) مجموع الفتاوى (١٥٦/٢١).

الوجه الثاني: أن قوله: ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧] لم يرد به أن فعل العبد هو فعل الله تعالى - كما تظنه طائفة من الغالطين - فإن ذلك لو كان صحيحاً لكان ينبغي أن يقال لكل أحد، حتى يقال للماشي: ما مشيت إذ مشيت ولكن الله مشى، ويقال للراكب: وما ركبت إذ ركبت ولكن الله ركب، ويقال للمتكلم: ما تكلمت إذ تكلمت ولكن الله تكلم، ويقال مثل ذلك للأكل والشارب، والصائم والمصلي نحو ذلك.

وطرد ذلك يستلزم أن يقال للكافر: ما كفرت إذ كفرت ولكن الله كفر، ويقال للكاذب: ما كذبت إذ كذبت ولكن الله كذب.

ومن قال مثل هذا: فهو كافر ملحد خارج عن العقل والدين.

ولكن معنى الآية أن النبي ﷺ يوم بدر رماهم، ولم يكن في قدرته أن يوصل الرمي إلى جميعهم فإنه إذ رماهم بالتراب وقال: «شاهت الوجوه»^(١) لم يكن في قدرته أن يوصل ذلك إليهم كلهم، فالله تعالى أوصل ذلك الرمي إليهم بقدرته. يقول: وما أوصلت إذ حذفت ولكن الله أوصل، فالرمي الذي أثبت له ليس هو الرمي الذي نفاه عنه، فإن هذا مستلزم للجمع بين النقيضين، بل نفى عنه الإيصال والتبليغ، وأثبت له الحذف والإلقاء، وكذلك إذا رمى سهماً فأوصله الله إلى العدو إيصالاً خارقاً للعادة: كان الله هو الذي أوصله بقدرته.

الوجه الثالث: أنه لو فرض أن المراد بهذه الآية أن الله خالق أفعال العباد فهذا المعنى حق، وقد قال الخليل: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ﴾ [البقرة: ١٢٨] فالله هو الذي جعل المسلم مسلماً، وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٦﴾ إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾﴾ [المعارج]، فالله هو الذي خلقه هلوعاً، ولكن ليس في هذا أن الله هو العبد؛ ولا أن وجود الخالق هو المخلوق، ولا أن الله حالٌ في العبد.

فالقول بأن الله خالق أفعال العباد حق، والقول بأن الخالق حالٌ في المخلوق أو وجوده وجود المخلوق باطل.

وهؤلاء يتنقلون من القول بتوحيد الربوبية إلى القول بالحلول والاتحاد، وهذا عين الضلال والإلحاد.

(١) مسلم (٣/١٤٠٢).

الوجه الرابع: أن قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، لم يرد به أنك أنت الله، وإنما أراد أنك أنت رسول الله ومبلغ أمره ونهيه، فمن بايعك فقد بايع الله، كما أن من أطاعك فقد أطاع الله، ولم يرد بذلك أن الرسول هو الله؛ ولكن الرسول أمر بما أمر الله به.

فمن أطاعه فقد طاع الله، كما قال النبي ﷺ: «من أطاعني فقد أطاع الله، ومن أطاع أميرى فقد أطاعني، ومن عصاني فقد عصى الله، ومن عصى أميرى فقد عصاني» ومعلوم أن أميره ليس هو إياه.

ومن ظن في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ أن المراد به أن فعلك هو فعل الله، أو المراد أن الله حالٌّ فيك ونحو ذلك فهو - مع جهله وضلاله بل كفره وإلحاده - قد سلب الرسول خاصيته وجعله مثل غيره وذلك أنه لو كان المراد به كون الله فاعلاً لفعلك: لكان هذا قدراً مشتركاً بينه وبين سائر الخلق، وكان من بايع أبا جهل فقد بايع الله، ومن بايع مسيلمة الكذاب فقد بايع الله، ومن بايع قادة الأحزاب فقد بايع الله، وعلى هذا التقدير فالمبايع هو الله أيضاً، فيكون الله قد بايع الله؛ إذ الله خالق لهذا ولهذا، وكذلك إذا قيل بمذهب أهل الحلول والوحدة والاتحاد، فإنه عام عندهم في هذا وهذا، فيكون الله قد بايع الله.

وهذا يقوله كثير من شيوخ هؤلاء الحلولية الاتحادية، حتى إن أحدهم إذا أمر بقتال العدو يقول: أقاتل الله؟ ما أقدر أن قاتل الله، ونحو هذا الكلام الذي سمعناه من شيوخهم، وبيننا فسادهم لهم وضلالهم فيه غير مرة.

وأما الحلول الخاص فليس هو قول هؤلاء؛ بل هو قول النصارى ومن وافقهم من الغالية، وهو باطل أيضاً، فإن الله سبحانه قال له: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ وقال: ﴿وَأَنْتُمْ لَمَّا قَامَ عَبْدُ اللَّهِ يَدْعُوهُ﴾ [الجن: ١٩]، وقال: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا﴾ [الإسراء: ١]، وقال: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا﴾ [البقرة: ٢٣]، وقال: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَنْبَأَهُمْ وَأَنْبَأَهُمْ فَتَحَا قَرِيْبًا ﴿١٦٦﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٧﴾﴾ [الفتح].

فقوله: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ﴾ بين قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ ولهذا قال: ﴿يُدُّ اللَّهُ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ ومعلوم أن يد

النبي ﷺ كانت مع أيديهم، كانوا يصافحونه ويصفقون على يده في البيعة، فعلم أن يد الله فوق أيديهم ليست هي يد النبي ﷺ، ولكن الرسول عبد الله ورسوله، فبايعهم عن الله وعاهدهم وعاهدتهم عن الله، فالذين بايعوه بايعوا الله الذي أرسله وأمره ببيعتهم.

ألا ترى أن كل من وكل شخصاً يعقد مع الوكيل: كان ذلك عقداً مع الموكل؟ ومن وكل نائباً له في معاهدة قوم فعاهدتهم عن مستنبيه: كانوا معاهدين لمستنبيه؟ ومن وكل رجلاً في إنكاح أو تزويج: كان الموكل هو الزوج الذي وقع له العقد؟ وقد قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ﴾ الآية [التوبة: ١١١]، ولهذا قال في تمام الآية: ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَاهَدَ عَلَيْهِ اللَّهُ فَمِيسِرَةٌ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [الفتح: ١٠]، فتبين أن قول ذلك الفقير هو القول الصحيح، وإن الله إذا كان قد قال لنبيه: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ فيأبى نكون نحن؟ وقد ثبت عنه ﷺ في الصحيح أنه قال: «لا تطروني كما أطرت النصارى المسيح ابن مريم، فإنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله»^(١) . ا. هـ^(٢).

وقال في الكلام عن الآيات (١٣٠ - ١٣٤):

﴿وَقَالَ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ الآيات، إلى قوله: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٤] فنهى عن الربا الذي فيه ظلم الناس، وأمر بالإحسان إلى الناس المضاد للربا) ا. هـ^(٣).

﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ .

قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا النَّارَ الَّتِي أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ . فأمر سبحانه المؤمنين أن لا يأكلوا الربا وأن يتقوا الله، وأن يتقوا النار التي أعدت للكافرين، فعلم أنهم يخاف عليهم من دخول النار إذا أكلوا الربا وفعّلوا المعاصي، مع أنها معدة للكافرين لا لهم) ا. هـ^(٤).

﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفِرَةٍ مِن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ غُرَّتْهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ .

قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفِرَةٍ مِن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ غُرَّتْهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ

(١) البخاري (٦٨٢٩)، ومسلم (١٦٩١). (٢) مجموع الفتاوى (٢/٣٣٠ - ٣٣٥). (٣) تفسير آيات أشكلت (٢/٥٩٩). (٤) مجموع الفتاوى (١٥/٣٦٨).

أَعَدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٦﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿وَنِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٦] فلم يقل لا يظلمون ولا يذنبون، بل قال: ﴿إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٣٥] أي بذنب آخر غير الفاحشة؛ فعطف العام على الخاص. كما قال موسى: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [النمل: ٤٤]، وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ وقال تعالى عموماً عن أهل القرى المهلكة: ﴿وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِنْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] فظلموا أنفسهم بارتكابهم ما نهوا عنه؛ وبعضيانهم لأنبيائهم وبتركهم التوبة إلى ربهم) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (ولهذا قال سبحانه في وصف المتقين الذين أعد لهم الجنة: ﴿وَسَارِعُوا إِلَى مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظَّيْنِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٧﴾ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن دُونِ اللَّهِ أَن يَبْصُرَ عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿١٣٨﴾ أُولَٰئِكَ جَزَاءُ مَن مَّعَفَرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَجَنَّةٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَنِعَمَ أَجْرَ الْعَمِلِينَ ﴿١٣٩﴾).

فوصفهم بالكرم والحلم وبالإنفاق وكظم الغيظ والعفو عن الناس، ثم لما جاءت الشهوات المحرمات وصفهم بالتوبة منها فقال: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظَّيْنِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ ﴿فوصفهم بالتوبة منها وترك الإصرار عليها لا بترك ذلك بالكلية﴾ ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَعْفَرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٣٦﴾ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكُظَّيْنِ الْغَيْظِ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٧﴾) فذكر: أنه يحب المحسنين، والعافين عن الناس، وتبين بهذا أن هذا من الإحسان، والإحسان ضد الإساءة، وهو فعل الحسن، سواء كان لازماً لصاحبه، أو متعدياً إلى الغير، ومنه قوله: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلٍهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٦٠﴾ [الأنعام]، فالكاظم للغيظ، والعافي عن الناس، قد أحسن إلى نفسه، وإلى الناس؛ فإن ذلك عمل حسنة مع نفسه، ومع الناس، ومن أحسن إلى الناس فإلى نفسه كما يروى عن بعض السلف أنه

قال: ما أحسنت إلى أحد، وما أسأت إلى أحد، وإنما أحسنت إلى نفسي، وأسأت إلى نفسي. قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ [الإسراء: ٧]، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلْ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا﴾ [فصلت: ٤٦].

ولو لم يكن الإحسان إلى الخلق إحساناً إلى المحسن، يعود نفعه عليه، لكان فاعلاً إثمًا أو ضرراً، فإن العمل الذي لا يعود نفعه على فاعله، إما حيث لم يكن فيه فائدة، وإما شر من العيب، إذا ضر فاعله، والعفو عن الظالم أحد نوعي الصدقة: المعروف والإحسان إلى الناس، وجماع ذلك الزكاة (١) هـ.

﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥).

(وكذلك قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرُ اللَّهُ ذُنُوبَهُ إِلَّا اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ (١٣٥) وقد قيل: في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ قيل: الفاحشة الزنى، وقيل: كل كبيرة، وظلم النفس المذكور معها. قيل: هو فاحشة أيضاً وقيل: هي الصغائر وهذا يوافق قول من قال: الفاحشة هي الكبيرة، فيكون الكلام قد تناول الكبيرة والصغيرة، ومن قال: الفاحشة الزنى، يقول: ظلم النفس يدخل فيه سائر المحرمات، وقيل: الفاحشة الزنى، وظلم النفس ما دونه من اللمس والقبلة والمعانقة، وقيل: هذا هو الفاحشة، وظلم النفس المعاصي، وقيل الفاحشة فعل وظلم النفس قول.

والتحقيق أن «ظلم النفس» جنس عام يتناول كل ذنب، وفي الصحيحين أن أبا بكر قال: يا رسول الله! علمني دعاءً أدعوه به في صلاتي فقال: «قل: اللهم إني ظلمت نفسي ظلماً كثيراً، ولا يغفر الذنوب إلا أنت، فاغفر لي مغفرة من عندك، وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم» (٢).

وفي صحيح مسلم (٣) وغيره أن النبي ﷺ كان يقول في استفتاحه: «اللهم أنت ربي وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي فاغفر لي؛ فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت واهدني لأحسن الأخلاق؛ فإنه لا يهدي لأحسنها إلا أنت، واصرف عني سيئها فإنه لا يصرف عني سيئها إلا أنت».

(١)(٢) مجموع الفتاوى (٣٠/٣٦٤ - ٣٦٥).

(٣) مرّ تخريجهما.

وقد قال أبو البشر وزوجته: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [الأعراف: ٢٣]. وقال موسى: ﴿إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ [القصص: ١٦]. وقال ذو النون «يونس» ﴿لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [الأنبياء: ٨٧]. وقالت بلقيس: ﴿رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل: ٤٤].

وفي الصحيحين عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ (١) وقد قال عن أهل القرى المعذبين: ﴿وَمَا ظَلَمْتَهُمْ وَلَكِن ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ [هود: ١٠١] ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وأما قوله: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ فهو نكرة في سياق الشرط، يعم كل ما فيه ظلم الإنسان نفسه؛ وهو إذا أشرك ثم تاب، تاب الله عليه، وقد تقدم أن ظلم الإنسان لنفسه يدخل فيه كل ذنب كبير أو صغير مع الإطلاق) ا.هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وحدیث صلاة التوبة محفوظ في السنن عن علي عن أبي بكر الصديق، عن النبي ﷺ أنه قال: «ما من مسلم يذنب ذنباً فيتوضأ ويحسن الوضوء ثم يصلي ركعتين ويستغفر الله إلا غفر له» وقرأ هذه الآية: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ (٤) ا.هـ (٥).

وقال رحمه الله: (وقد روي عن أبي العالية وغيره: أن أحدهم كان إذا أصاب ذنباً أصبحت الخطيئة والكفارة مكتوبة على بابه، فأنزل الله في حق هذه الأمة: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَجَسَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ﴾ إلى قوله ﴿وَيَعْمَ آجُرُ الْعَمَلِينَ﴾ فخص الفاحشة بالذكر مع قوله: ﴿ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ﴾ والظلم يتناول الفاحشة وغيرها تحقيقاً لما ذكرناه من قبول التوبة من الفواحش مطلقاً: من الذين يأتيناها من الرجال والنساء جميعاً) ا.هـ (٦).

وقال رحمه الله: (وهذا كقوله: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾

(١) بياض في الأصل. (٢) مجموع الفتاوى (١١/٦٩٢ - ٦٩٣).

(٣) مجموع الفتاوى (٧/٧٩).

(٤) أبو داود (١٥٢١)، والترمذي (٣٠٠٩)، وابن ماجه (١٣٩٥)، وأحمد (٤٧)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (٣١٦، ٣١٧) وفي التفسير (ص٣٧)، وابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ١٤٥٥) والطبري (٧٨٥٣) وهو حديث جيد الإسناد كما قال ابن حجر وصححه أحمد شاكر.

(٥) الاستقامة (١/١٨٤). (٦) مجموع الفتاوى (١٥/٤٠٦ - ٤٠٧).

كَيْفَ كَانَ عَقِبُهُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿١٧٧﴾ روى ابن أبي حاتم بالإسناد المعروف عن مجاهد: قد خلت من قبلكم سنن من الكفار والمؤمنين في الخير والشر^(١) وعن أبي إسحاق: أي قد مضت مني وقائع نعمة في أهل التكذيب لرسلي والشرك بي عاد وثمرود وقوم لوط وأصحاب مدين فرأوا مثلات قد مضت مني فيهم^(٢) فقد فسرت السنن بأعمالهم وبجزائهم قال البغوي^(٣): ومعنى الآية قد مضت وسلفت مني فيمن كان قبلكم من الأمم الماضية الكافرة بإمهالي واستدراجي إياهم حتى يبلغ الكتاب فيهم أجلي الذي أجلته لإهلاكهم وإدالة أنبيائي فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين أي آخر المكذبين منهم، قال: وهذا في حزب واحد يقول: فأنا أمهلهم وأستدرجهم حتى يبلغ أجلي الذي أجلت من نصرة النبي وأوليائه وهلاك أعدائه. قلت: ونظير هذا قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعَى الْأَبْصَرَ وَلَكِن تَعَى الْقُلُوبَ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴿٤١﴾﴾ [الحج]، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الْأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَحَمَتُهُمْ رَسُولُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٤٢﴾﴾ [الروم]، وقوله في الآية الأخرى: ﴿كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً وَءَاتَارَا فِي الْأَرْضِ فَمَا آغَفَى عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴿٤٣﴾﴾ فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَحَدُّهُ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِ مُشْرِكِينَ ﴿٤٥﴾﴾ فَلَمْ يَكُ يَنْفَعُهُمْ إِيمَانُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا سُنَّتَ اللَّهُ الَّتِي قَدْ خَلَتْ فِي عِبَادِهِ وَخَسِرَ هُنَالِكَ الْكَافِرُونَ ﴿٤٥﴾﴾ [غافر]، فهذا كله يبين أن سنة الله وعادته مطردة لا تنتقض في إكرام مصدقي الرسل وإهانة مكذبيهم) ا. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (قال: ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ﴾ أي على الأرض) ا. هـ^(٥).

﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٧٨﴾.

(ومثله قوله: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ﴾ ﴿١٧٨﴾ فالبيان يعم كل من فقهه والهدى والموعظة للمتقين) ا. هـ^(٦).

(١) ابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ١٤٧٨)، والطبري (٧٨٦٨).

(٢) ابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ١٤٧٩)، والطبري (٧٨٧٠).

(٣) البغوي (٣٥٤/١). (٤) النبوات (٢٥٢ - ٢٥٣).

(٥) مجموع الفتاوى (١٤/١٦). (٦) بيان تليس الجهمية (١/٥٦٠).

﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦).

(والله تعالى قد بين في القرآن ما في إدالة العدو عليهم يوم أحد من الحكمة فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦) إِنْ يَمَسَّكُمْ فَرَحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ فَرَحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الْآيَاتُ نَادِوْهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءً وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٣٧) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ (١٣٨) فمن الحكم تمييز المؤمن عن غيره فإنهم إذا كانوا دائماً منصورين لم يظهر لهم وليهم وعدوهم إذ الجميع يظهرون الموالاتة فإذا غلبوا ظهر عدوهم قال تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنْ لِلَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦) وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَنِتَلُوْا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ (١٣٧) الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا قُلْ فَادْرءُوا عَنْ أَنْفُسِكُمْ الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صٰدِقِينَ (١٣٨) [آل عمران] وقال تعالى: ﴿الَّذِينَ أَحْسَبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا ءَامَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾ (٢) وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكٰذِبِينَ﴾ (٣) [العنكبوت]، إلى قوله: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّهِ وَلَئِنْ جَاءَ نَصْرٌ مِنْ رَبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمْ أَوْ لَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِمَا فِي صُدُورِ الْعٰلَمِينَ﴾ (١٠) وَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنٰفِقِينَ﴾ (١١) [العنكبوت]، وقال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [آل عمران: ١٧٩]، وأمثال ذلك. ومن الحكم أن يتخذ منكم شهداء فإن منزلة الشهادة منزلة عليّة في الجنة ولا بد من الموت، فموت العبد شهيداً أكمل له وأعظم لأجره وثوابه ويكفر عنه بالشهادة ذنوبه وظلمه لنفسه والله لا يحب الظالمين، ومن ذلك أن يمحص الله الذين آمنوا فيخلصهم من الذنوب فإنهم إذا انتصروا دائماً حصل للنفوس من الطغيان وضعف الإيمان ما يوجب لها العقوبة والهوان. قال تعالى: ﴿إِنَّمَا تُحْمَلُ لَهُمْ لِيَزَادُوا إِثْمًا﴾ [آل عمران: ١٧٨] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لِرَبِّهِ لَكٰفِرٌ لَطْفًا﴾ (١) أَنْ رَأَاهُ اسْتَفْتَى (٧) [العلق]، وفي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «مثل المؤمن كمثل الخامة من الزرع تقيمها^(١) الرياح تقومها تارة، وتميلها أخرى ومثل المنافق كمثل الأرزة لا تزال ثابتة على أصلها حتى يكون انجعافها مرة واحدة»^(٢)

(١) كذا في الأصل، وفي الصحيحين: تفيئها.

(٢) البخاري (٥٦٤٤)، ومسلم (٢٨٠٩).

وسئل ﷺ أي الناس أشد بلاء فقال: «الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل، بيتلي الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه رقة خفف عنه وإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، ولا يزال البلاء بالمؤمن في نفسه وأهله وماله حتى يلقي الله وليس عليه خطيئة»^(١) وقد قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُمْ مَثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلِكُمْ مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزَلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصُرَ اللَّهُ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴿١٤٤﴾﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الضَّالِّينَ ﴿١٤٢﴾﴾ [آل عمران]، وفي الأثر فيما روي عن الله تعالى: «يا ابن آدم البلاء يجمع بيني وبينك والعافية تجمع بينك وبين نفسك. وفي الأثر أيضاً أنهم إذا قالوا للمريض: اللهم ارحمه يقول الله: كيف أرحمه من شيء به أرحمه. وقد شهدنا أن العسكر إذا انكسر خشع لله وذل وتاب إلى الله من الذنوب وطلب النصر من الله وبرىء من حوله وقوته متوكلاً على الله، ولهذا ذكروهم الله بحالهم يوم بدر وبحالهم يوم حنين فقال: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٠﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٣١﴾﴾ [التوبة]، وشواهد هذا الأصل كثيرة، وهو أمر يجده الناس بقلوبهم ويحسونه ويعرفونه من أنفسهم ومن غيرهم، وهو من المعارف الضرورية الحاصلة بالتجربة لمن جربها، والأخبار المتواترة لمن سمعها ثم ذكر حكمة أخرى فقال: «وَيَمْحَقُ الْكَافِرِينَ» وذلك أن الله سبحانه إنما يعاقب الناس بأعمالهم والكافر إذا كانت له حسنات أطعمه الله بحسناته في الدنيا فإذا لم تبق له حسنة عاقبه بكفره والكفار إذا أدبوا يحصل لهم من الطغيان والعدوان وشدّة الكفر والتكذيب ما يستحقون به المحق في إداثهم ما يحققهم الله به) ا. هـ.^(٢)

وقال رحمه الله: (وكذلك قوله: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٦﴾﴾ قرّن النهي عن ذلك بما يزيله من إخباره أنهم هم الأعلون إن كانوا مؤمنين) ا. هـ.^(٣)

(١) الترمذي (٢٣٩٨) وابن ماجه (٤٠٢٣) وأحمد (٤٥/٣) والدارمي (٢٢٨/٢) والحديث صحيح.

(٢) شرح الأصفهانية (١٦٦ - ١٦٩). (٣) منهاج السنة (٨/٤٦٤).

وقال رحمه الله: (وأما المؤمنون، فكما قال تعالى لهم وقد غلبوا: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦)، فهم الأعلون إذا كانوا مؤمنين ولو غلبوا. وقال كعب بن زهير في صفة الصحابة:

ليسوا مفاريح إن نالت رماحهم يوماً وليسوا مجازيعاً إذا نيلوا) ا.هـ^(١)

وقال رحمه الله: (قال تعالى لنبية وأصحابه: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦) فأخبر أنهم هم الأعلون وهم مع ذلك لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦) فمن كان مؤمناً فهو الأعلى كائناً من كان) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قد نهى الله عباده عن الوهن والحزن؛ فقال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦) وندبهم إلى الرحمة وقال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: «لا تنزع الرحمة إلا من شقي»^(٤) وقال: «من لا يرحم لا يرحم»^(٥)، وقال: «الراحمون يرحمهم الرحمن ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء») ا.هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦) وقال تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلَامِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ وَاللَّهُ مَعَكُمْ وَلَنْ يَبْرِكُمْ أَعْمَالَكُمْ﴾ (٣٥) [محمد]، وعلي ﷺ دعا معاوية إلى السلم في آخر الأمر، لما عجز عن دفعه عن بلاده، وطلب منه أن يبقى كل واحد [منهما] على ما هو عليه وقد قال تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ (١٣٦)، فإن كان أصحابه مؤمنين وأولئك مرتدين وجب أن يكونوا الأعلى، وهو خلاف الواقع) ا.هـ^(٨).

(١) جامع الرسائل (٢/٣٦١).

(٢) مجموع الفتاوى (٢٠/١٤٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٣/٢٥٢).

(٤) أبو داود (٤٩٤٢) والترمذي (١٩٢٤) والطيالسي (٢٥٢٩) وأحمد (٣٠١/٢)، والبخاري «الأدب المفرد» (٣٧٤) والحديث حسن، والله أعلم.

(٥) البخاري (٥٩٩٧) ومسلم (٢٣١).

(٦) أبو داود (٤٩٤١) والترمذي (١٩٢٤) وأحمد (١٦٠/٢) والحاكم (١٥٩/٤) والبيهقي (٤١/٩) والحميدي (٥٩١) والحديث صحيح، مجموع الفتاوى (٦/١١٧).

(٧) منهاج السنة (٤/٥١٤) هذا القول في معرض رده على شبهة الرافضي ابن مطهر الحلبي.

(٨) درء تعارض العقل والنقل (١/٢١٠).

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّادِقِينَ﴾ (١٤٦).
 كما قال تعالى: ﴿وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّادِقِينَ﴾ على قراءة
 (النصب) ١. هـ^(١).

﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾ (١٤٧).
 وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْفَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ نَظُرُونَ﴾
 لأن الإنسان يشاهد بنفسه هذه الأمور.

وقد قيل: إن الموت نفسه يشاهد ويرى ظاهراً وقيل: المرئي أسبابه) ١. هـ^(٢).
 ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ
 وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٨).

(وكذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾، أي ليس
 مغلداً في الدنيا لا يموت ولا يقتل، بل يجوز عليه ما جاز على إخوانه المرسلين من
 الموت أو القتل، ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ نزلت يوم أحد لما قيل: إن
 محمداً قد قتل، وتلاها الصديق يوم مات رسول الله ﷺ فقال: من كان يعبد محمداً فإن
 محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وتلا هذه الآية، فكان
 الناس لم يسمعوها حتى تلاها أبو بكر رضي الله تعالى عنه^(٣)، فكان لا يوجد أحد إلا
 يتلوها) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (فقد سمعتم ما نعت الله به الشاكرين والمنقلبين حيث يقول:
 ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ
 يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ (١٤٨) أنزل الله سبحانه هذه
 الآية وما قبلها وما بعدها في غزوة أحد، لما انكسر المسلمون مع النبي ﷺ، وقتل
 جماعة من خيار الأمة، وثبت رسول الله ﷺ مع طائفة يسيرة حتى خلص إليه العدو،
 فكسروا رباعيته، وشجوا وجهه، وهشموا البيضة على رأسه، وقتل وجرح دونه طائفة
 من خيار أصحابه لذبحهم عنه، ونعق الشيطان فيهم: أن محمداً قد قتل فزلزل ذلك قلوب
 بعضهم، حتى انهزم طائفة، وثبت الله آخرين حتى ثبتوا.

(١) مختصر الفتاوى المصرية (١٧٦).

(٢) مختصر الفتاوى المصرية (١٧٦).

(٣) البخاري (٨/٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٢٦٧/١٨).

وكذلك لما قبض النبي ﷺ، فنزلت القلوب، واضطرب جبل الدين، وغشيت الذلة من شاء الله من الناس، حتى خرج عليهم الصديق رضي الله تعالى عنه، فقال: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، وقرأ قوله: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ فكان الناس لم يسمعوها حتى تلاها الصديق رضي الله عنه، فلا يوجد من الناس إلا من يتلوها) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (والمقصود أن الله قال لمحمد: ﴿قُلْ مَا كُنْتُ بِدَعَا مِنْ الرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ﴾ فبين أن هذا الجنس من الناس معروف قد تقدم له نظراء وأمثال، فهو معتاد في الأدمين وإن كان قليلاً فيهم وأما من جاءهم رسول ما يعرفون قبله رسولاً كقوم نوح فهذا بمنزلة ما يبتديه الله من الأمور، وحينئذٍ فهو يأتي بما يختص به مما يعرفون أن الله صدقه في إرساله، فهذا يدل على النوع والشخص، وإن كانت آيات غيره تدل على الشخص؛ إذ النوع قد عرف قبل هذا فالمقصود أن آيته وبرهانه لا بد أن يكون مختصاً بهذا النوع لا يجب أن يختص بواحد من النوع، ولا يجوز أن يوجد لغير النوع) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (لا ريب أن عمر خفي عليه موته أولاً، ثم أقر به من الغد، واعترف بأنه كان مخطئاً في إنكار موته، فارتفع الخلاف، وليس لفظ الحديث كما ذكره الشهرستاني، ولكن في الصحيحين عن ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس، فقال: اجلس يا عمر، فأبى أن يجلس، فأقبل الناس إليه، وتركوا عمر، فقال أبو بكر، أما بعد، فمن كان منكم يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت. قال الله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ﴾ الآية، قال: والله لكأن الناس لم يعلموا أن الله قد أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر، فتلقاها الناس كلهم، فما أسمع بشراً من الناس إلا يتلوها فأخبرني ابن المسيب أن عمر قال: «والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعقرت حتى ما تقلني رجلاي، وحتى أهويت إلى الأرض حين سمعته تلاها، علمت أن رسول الله ﷺ قد مات) ا.هـ^(٣).

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٤١١ - ٤١٢).

(٢) النبوات (١٩).

(٣) رواه البخاري (١٢٤١، ١٢٤٢).

(٤) منهاج السنة (٦/٣٢٣ - ٣٢٤).

وقال رحمه الله: (فقال الصديق رضي الله عنه): من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت.

ثم قرأ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا﴾ الآية.

وفي البخاري عن عائشة أن النبي صلى الله عليه وسلم مات وأبو بكر بالسنح، فقام عمر يقول: والله ما مات رسول الله قالت: وقال عمر: والله ما كان يقع في نفسي إلا ذلك، وليبعثه الله فليقطعن أيدي رجال وأرجلهم فجاء أبو بكر فكشف عن وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقبله وقال: بأبي أنت وأمي، طبت حياً وميتاً والذي نفسي بيده لا يذيقك الله الموتين أبداً.

ثم خرج فقال: «أيها الحالف على رسلك فلما تكلم أبو بكر جلس عمر، فحمد الله أبو بكر وأثنى عليه وقال: ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت وقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر]، وقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ قال: فنشج الناس (يكون)» ١. هـ.

وقال رحمه الله: (قال سبحانه [فيه]: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنَ يَصُرَ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾).

بين سبحانه وتعالى أنه ليس بموته ولا قتله ينتقض حكم رسالته كما ينتقض حكم الإمامة بموت الأئمة وقتلهم، وأنه ليس من شرطه أن يكون خالداً لا يموت، فإنه ليس هو رباً وإنما هو رسول قد خلت من قبله الرسل، وقد بلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد في الله حق جهاده وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه، فطاعته واجبة بعد مماته وجوبها في حياته وأوكد، لأن الدين كمل واستقر بموته فلم يبق فيه نسخ، ولهذا جُمع القرآن بعد موته لكماله واستقراره بموته) ١. هـ.

(١) منهاج السنة (٨/٨٣، ٤٥٢، ٤٥٣)، (٨/٨٣)، مجموع الفتاوى (٢٧/٣٦٢ - ٣٦٣).

(٢) منهاج السنة (١/٨٢ - ٨٣).

وقال في الكلام على النعمة والشكر في الآية:

(نعم الله على عباده تتضمن نفعهم والإحسان إليهم وذلك نوعان:

أحدهما: أن يدفع بذلك مضرتهم ويزيل حاجتهم وفاقتهم مثل رزقهم الذي لولاه لماتوا جوعاً، ونصرهم الذي لولاه لأهلكهم عدوهم، ومثل هداهم الذي لولاه لضلوا ضلالاً يضرهم في آخرتهم، وهذا النوع من النعمة لا بد لهم منه، وإن فقدوه حصل لهم ضرر إما في الدنيا وإما في الآخرة وإما فيهما.

والنوع الثاني: النعم التي يحصل بها من كمال النعم وعلو الدرجة ما لا يحصل بدونها، كما أنهم في الآخرة نوعان: أبرار أصحاب يمين ومقربون سابقون، ومن خرج عن هذين كان من أصحاب الجحيم، وإذا كانت النعمة نوعين فالخلق كانوا محتاجين إلى إرسال محمد ﷺ من هذين الوجهين وحصل بإرساله هذان النوعان من النعمة، فإن الناس كان بدونها جهالاً ضالين أميهم وأهل الكتاب منهم، فكان إرساله أعظم نعمة على أهل الأرض من نوعي النعم، ومن استقرأ أحوال العالم تبين له أن الله لم ينعم على أهل الأرض نعمة أعظم من إنعامه بإرسال محمد ﷺ، وإن الذين ردوا رسالته ممن قال الله فيهم: ﴿ أَلَمْ تَر إِلَى الَّذِينَ بَدَلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴾ [إبراهيم]، ولهذا وصف بالشكر من قبل هذه النعمة فقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ بَيْنِهِمْ ﴾ [العنكبوت: 3] إلى قوله: ﴿ أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام: 53]، وقال: ﴿ وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ ١. هـ (١).

﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَيْبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِرِينَ ﴾ (٤٦).

(وقال تعالى عن المؤمنين الذين قتل نبيهم: ﴿ وَكَانَ مِنْ نَبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَيْبُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِرِينَ ﴾ (٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴾ (٤٧) فَكَانَتْ لَهُمْ أَجْرُهُمْ وَأَحْسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (٤٨).

وقوله: ﴿ قتل ﴾ أي النبي قتل. هذا أصح القولين وقوله: ﴿ مَعَهُ رَيْبُونَ كَثِيرٌ ﴾ جملة في موضع الخبر صفة للنبي صفة بعد صفة أي كم من نبي معه ريبون كثير قتل ولم

يقتلوا معه . فإنه كان يكون المعنى : أنه قتل وهم معه والمقصود : أنه كان معه ربيون كثير ، وقتل في الجملة وأولئك الربيون ﴿ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا ﴾ ، و«الربيون» الجموع الكثيرة وهم الألوف الكثيرة .

وهذا المعنى : هو الذي يناسب سبب النزول وهو ما أصابهم يوم أحد ، لما قيل : «إن محمداً قد قتل» وقد قال قبل ذلك : ﴿ وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنْ يَصَرَ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ ﴾ (١٤٤) .

وهي التي تلاها أبو بكر الصديق رضي الله عنه يوم مات النبي صلى الله عليه وسلم وقال : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يعبد الله ، فإن الله حي لا يموت (١) .

فإنه عند قتل النبي وموته : تحصل فتنة عظيمة للناس - للمؤمنين والكافرين - وتحصل ردة ونفاق ، لضعف قلوب أتباعه لموته ، ولما يلقيه الشيطان في قلوب الكافرين : إن هذا قد انقضى أمره ما بقي يقوم دينه وأنه لو كان نبياً لما قُتِلَ وُغْلِبَ ونحو ذلك فأخبر الله تعالى : أنه كم من نبي قتل ؟ .

فإن بني إسرائيل قتلوا كثيراً من الأنبياء . والنبي معه ربيون كثير أتباع له . وقد يكون قتله في غير حرب ولا قتال بل يقتل وقد اتبعه ربيون كثير فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله ، وما ضعفوا وما استكانوا والله يحب الصابرين ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب - فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم وسألوا الله أن يغفر لهم ، وأن يثبت أقدامهم ، فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا ولا ينكلوا عن الجهاد . قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴾ (١٥٦) [الحجرات] ، وسألوه أن ينصرهم على القوم الكافرين سألوا ربهم ما يفعل لهم في أنفسهم من التثبيت وما يعطيهم من عنده من النصر فإنه هو الناصر وحده ، وما النصر إلا من عند الله وكذا أنزل الملائكة عوناً لهم . قال تعالى لما أنزل الملائكة : ﴿ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرًا وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ (١٦٠) [الأنفال] وقال تعالى : ﴿ فَفَأَنهَمُ اللَّهُ نَوَآبَ الدُّنْيَا وَحَسَنَّ نَوَآبِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴾ (١٨١) وهذا مبسوط في موضع آخر (٢) هـ .

وقال رحمه الله: (وقال تعالى: ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّادِقِينَ﴾ (٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٤٧) فَعَانَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٤٨). والأكثرون يقرؤون «قاتل معه ربيون كثير»، والربيون الكثير عند جماهير السلف والخلف هم الجماعات الكثيرة. قال ابن مسعود^(١) وابن عباس^(٢) - في رواية عنه - والفراء^(٣): ألوف كثيرة؛ وقال ابن عباس - في رواية أخرى ومجاهد وعكرمة والضحاك وقتادة والسدي والربيع وابن قتبية^(٤): جماعات كثيرة. وقُرئ بالحركات الثلاث في الرء، فعلى هذه القراءة الربيون الذين قاتلوا معه هم الذين ما وَهَنُوا وما ضَعُفُوا وما اسْتَكَانُوا.

وأما على قراءة أبي عمرو وابن كثير ونافع «قُتِلَ» ففيها وجهان:

أحدهما: يوافق معنى هذه الآية، أي قُتِلَ معه ربيون كثير، فالربيون مقتولون، فما وهنوا أي ما وهن من بقي منهم لقتل كثير منهم.

والثاني: أن النبي قُتِلَ ومعه ربيون كثير، فما وهنوا لقتل نبيهم. وهذا يناسب كون يوم أحدٍ صرخ الشيطانُ بأن محمداً قد قُتِلَ. لكن هذا المعنى لا يناسب لفظ الآية، فإنه سبحانه قال: «ربيون كثير»، فالمناسب أنهم مع كثرة المصيبة الشاملة لهم ما وهنوا. ولو أريد أن النبي قُتِلَ ومعه ناس لم يخافوا لم يحتج إلى تكثيرهم، بل كان تقلييلهم هو المناسب، يقول: هم مع قتلهم وقتل نبيهم لم يخافوا. وأما إذا كانوا كثيرين لم يكن مدحهم بعدم الخوف فيه عبرة.

وأيضاً فإذا وُصِفَ من قُتِلَ نبيُّه بكونهم كثيرين لم يكن في هذا حجة على الصحابة ولا عبرة لهم، فإنهم يوم أحد كانوا قليلين، وكان العدو أضعافهم، فكانوا يقولون: أولئك كانوا ألوفاً مؤلفة فلهذا لم يهِنُوا، ونحن قليلون.

وأيضاً فقوله: ﴿وَكَايِنٍ مِّن نَّبِيٍّ﴾ يقتضي كثرة ذلك، وهذا لا يُعَرَفُ أن أنبياء كثيرين قُتِلُوا في الجهاد.

(١) ابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ١٥٧٠)، والطبراني (٩٠٩٦)، وتفسير الثوري (٤٠)، والطبري (٧٩٥٨).

(٢) ابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ١٥٧١)، والطبري (٧٩٦٢).

(٣) معاني القرآن (١/٢٣٧). (٤) تفسير غريب القرآن (ص ١١٣).

وأيضاً فيقتضي أن المقتولين كان مع كل واحدٍ ربيون كثيرون، فيكون قد قُتِلَ أنبياءٌ كثيرون، ومع كل واحدٍ خلقٌ عظيم، وهذا لم يُوجَد. فإن من قبل موسى من الأنبياء لم يكونوا يُقاتِلون، وموسى وأنبياء بني إسرائيل لم يُقتلوا في الغزاة، والذين قتلهم بنو إسرائيل من الأنبياء لم يُقتلوا في جهادٍ، بل لا يُعرَفُ نبيٌّ قُتِلَ في جهادٍ، فكيف يكون هذا كثيراً؟ ويكون جنسه كثيراً ولا يُعرَفُ هذا في شيء من الأخبار؟! .

وهو سبحانه أنكر على من ينقلب على عقبيه، سواء كان النبي مقتولاً أو ميتاً، لم يخصَّ حال القتل، فلم يذمَّهم إذا مات أو قُتِلَ على الخوف والرعب، بل على الردة والانقلاب على العقبين. ولهذا تلاها الصديق يوم مات النبي ﷺ، فكانَّ الناس لم يسمعوها حتى تلاها.

ثم ذكر بعدها معنى آخر، وهو أنَّ من قبلكم كانوا يقاتلون، فَيُقْتَلُ معهم خلقٌ كثير وهم لا يَهْنُونَ. ويكون ذكر الكثرة مناسباً؛ لأنه إن قُتِلَ منهم كثيرٌ فهذا يقتضي الوهن وما وَهَنُوا، وإن كان الذين قاتلوا كثيرين وما وَهَنُوا دَلٌّ على إيمانهم كلَّهم مع الكثرة. ولم يقل هنا: وما انقلبوا على أعقابهم، فلو كان المراد أن نبيَّهم قُتِلَ لقال: «فما انقلبوا على أعقابهم»، لأنه هو الذي أنكره إذا مات الرسولُ أو قُتِلَ، فأنكر سبحانه شيئين: الارتداد إذا مات الرسولُ أو قُتِلَ، والوهن والضعف والاستكانة لما أصابهم في سبيل الله من استيلاء العدو، ولهذا قال: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾، ولم يقل: «فما وهنوا لقتل النبي». ولو كان النبي هو المقتول وهم كلهم أحياء لذكر ما يناسب ذلك ولم يقل ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾. ومعلوم أن ما يُصيب في سبيل الله في عامة الغزوات لا يكون قُتِلَ نبي.

وأيضاً فكون النبي قاتل معه أو قُتِلَ معه ربيون كثير لا يستلزم أن يكون معهم في الغزاة، بل كل من اتبع النبي وقاتل على دينه فقد قاتل معه، وكذلك كل من قُتِلَ على دينه فقد قُتِلَ معه، وحينئذٍ تظهر كثرة هؤلاء، فإن الذين قاتلوا وأصيبوا وهم على دين الأنبياء كثيرون. ويكون في هذه الآية عبرة لكل المؤمنين إلى يوم القيامة، فإنهم كلهم يقاتلون مع النبي ﷺ وإن كان النبي قد مات. والصحابة الذين كانوا يغزون في السرايا والرسولُ غائب عنهم كانوا معه وكانوا يقاتلون معه، وهم داخلون في قوله: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]، وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدِ وَهَجَرُوا وَجَهِدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥]. فليس من شرط من يكون مع المطاع أن يكون راتباً للمطاع.

وقد قيل في «ربّين» هنا: إنهم العلماء^(١)، واختاره الرّماني والزجاج، ورؤي عن الحسن وعن سعيد بن جبير عن ابن عباس، وكذلك قال ابن فارس^(٢): هم المتألهون العارفون بالله. وهؤلاء جعلوا لفظ «الرّبّي» كلفظ «الرّبّاني». وعن ابن زيد قال: هم الأتباع. كأنه جعلهم المرّبويين.

والمعنى الأول أصحّ من وجوه:

أحدها: أن الرّبانيين غيرُ الأحرار، وهم الذين يُرَبُّون الناس، وهم أئمتهم الذين يقتدون بهم في دينهم. ومعلوم أن هؤلاء لا يكونون إلا قليلاً، فكيف يقال: هم كثير؟
والثاني: أن الأمر بالجهد والصبر لا يختصُّ بهؤلاء، والصحابة لم يكونوا كلهم رّبانيين، فيقولون: أولئك أعطوا علماً منعهم [من] الخوف.

والثالث: أن استعمال لفظ «الرّبّي» في هذا ليس معروفاً في اللغة، بل المعروف الأول. والذين قالوا ذلك قالوا: هو نسبة إلى الرّبّ بلا نون، والقراءة المشهورة: «رّبّي» بالكسر، وما قالوه إنما يتوجّه على قراءة من قرأ «رّبّيون» بالفتح، وقد قرئ «رّبّيون» بالضم. فعلم أنها لغات.

الرابع: أن الله تعالى يأمر بالصبر والثبات كلَّ من يأمره بالجهد، سواء كان من الرّبانيين أو لم يكن.

الخامس: أنه لا مناسبة في تخصيص هؤلاء بالذكر، وإنما المناسب ذكرهم في مثل قوله: ﴿لَوْلَا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالْأَحْبَارُ عَنْ قَوْلِهِمُ الْآثِمَةَ وَالْكِهِمُ أَلسَّتْ﴾ [المائدة: 63]، وفي مثل قوله: ﴿وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ﴾ [آل عمران: 79]. وهناك ذكرهم بلفظ الرّبانيين.

السادس: أن «الرّباني» قيل: منسوب إلى الرّبّ بزيادة الألف والنون، كالرّقباني واللّحّياني^(٣)، وقيل: إنه منسوب إلى ربّان السفينة. وهذا أصحّ، فإن الأصل عدم الزيادة في النسبة، لأنهم منسوبون إلى تربية الناس وكونهم يُرَبُّونهم، وهذه النسبة تختص بهم. وأما نسبتهم إلى الرّبّ فلا اختصاص لهم بذلك، بل كلُّ عبدٍ فهو منسوبٌ إليه. ولم يُسمَّ الله تعالى أوليائه المتّقين رّبانيين، ولا سمّى أنبياءه والرسل رّبانيين، فإن الرّبّاني من يرَبُّ الناس كما يرَبُّ الرّبّانُ السفينة. ولهذا كان الرّبانيون يُدْمُون تارة

(١) عزاه صاحب «زاد المسير» (٤٧٢/١)، لسعيد بن جبير عن ابن عباس. وقد أشار لذلك ابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ١٥٨٠، ١٥٨١) عن الحسن، وكذا رواه الطبري (٧٩٦٨).
(٢) مجمل اللغة (٣٧٠/٢).
(٣) أي رجل لحيته كبيرة.

وَيُمدَحُونَ أُخْرَى، ولو كانوا منسوبين إلى الربّ بأنهم عرفوه وعبدوه لم يكونوا مذمومين قَطُّ، وهذا هو الوجه السابع:

أن نسبتهم إلى الرب إن جُعِلَتْ مدحاً فقد ذمَّ الله الربانيين في موضع آخر، وإن لم تُجْعَل مدحاً لم يكن لهؤلاء خاصّةٌ يمتازون بها من جهة المدح. وإذا كان الربّاني منسوباً إلى ربّان السفينة لا إلى الربّ بَطْلَ قولٍ من يجعل الربّانيّ منسوباً إلى الربّ، فنسبة «الريون» إلى الرب أولى بالبطلان.

الثامن: أنه إذا قُدِّر أنهم منسوبون إلى الرب فهذه النسبة لا تدلُّ على أنهم علماء، نعم تدلُّ على إيمان وعبادة وتألُّه، قاله ابن فارس. وهذا يعمُّ جميع المؤمنين، فكلُّ من عبد الله وحده لا يُشْرِك به شيئاً فهو متألِّه عارفٌ بالله.

والصحابة كلُّهم كانوا يعبدون الله وحده لا يُشركون به شيئاً، وكانوا متألِّهين عارفين بالله، ولم يُسمَّوا «ريون» ولا «ربّانيون»، وإنما جاء عن منذر الثوري قال: قال محمد بن الحنفية لما مات ابن عباس: اليوم مات ربّانيُّ هذه الأمة^(١)، لكونه كان يُؤدّبهم بما أعطاه الله من العلم، فيأمرهم وينهاهم. والخلفاء الراشدون كانوا ربّانيين. وقال إبراهيم: كان علقة من الربانيين^(٢). ولهذا قال مجاهد: هم الذين يربّون الناس بصغار العلم قبل كباره^(٣). فهم أهل الأمر والنهي والأخبار، يدخل فيه من أخبر بالعلم ورواه عن غيره وحدّث به، وإن لم يأمر وينه، وذلك هو المنقول عن السلف في «الربّاني». نُقِل عن علي رضي الله عنه قال: هم الذين يغذون الناس بالحكمة ويربّونهم عليها، وعن ابن عباس قال: هم الفقهاء المعلّمون^(٤). قلت: أهل الأمر والنهي [هم الفقهاء المعلّمون].

وعن قتادة وعطاء: هم الفقهاء العلماء الحكماء. قال ابن قتيبة^(٥): واحدهم ربّاني، وهم العلماء المعلّمون. وقال أبو عبيد^(٦): أحسب الكلمة ليست بعربية، إنما هي عبرانية أو سريانية. وذلك أن أبا عبيد زعم أن العرب لا تعرف الربانيين. قال أبو

(١) الخطيب في تاريخه (١/١٧٥)، الفسوي المعرفة والتاريخ (١/٥٤٠) ابن سعد في الطبقات (٢/٣٦٨).

(٢) ذكره البخاري بلفظ (ويقال) معلقاً (١/١٦ - الفتح).

(٣) عزاه ابن الجوزي (١/٤١٣) لعلي. (٤) ابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ٨٥٥).

(٥) تفسير غريب القرآن: ١٠٧.

(٦) نقل عنه ابن الجوزي في «زاد المسير» (١/٤١٣).

عبيد: وإنما عرفها الفقهاء وأهل العلم. قال: وسمعت رجلاً عالماً بالكتب يقول: هم العلماء بالحلال والحرام والأمر والنهي.

قلت: هذا صحيح، واللفظة عربية منسوبة إلى ربان السفينة، ولكن العرب في جاهليتهم لم يكن لهم ربانيون، لأنهم لم يكونوا على شريعة منزلة من الله عز وجل، فلهذا لم يشتهر هذا الاسم عنهم.

وحكى ابن الأنباري^(١) عن بعض اللغويين أن الرباني منسوب إلى الرب، لأن العلم مما يُطاع الله به، فدخلت الألف والنون في النسبة للمبالغة، كما قالوا: رجل لحياني إذا بالغوا في وصفه بكبر اللحية.

وهذا قولٌ ضعيف كما تقدم التنبيه عليه) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وأما قوله: ﴿أَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ فقد قيل: إن الذنوب هي الصغائر، والإسراف هو الكبائر.

و«التحقيق» أن «الذنوب» اسم جنس، و«الإسراف» تعدي الحد، ومجاوزة القصد، كما في لفظ الإثم والعدوان فالذنوب كالإثم، والإسراف كالعدوان، كما في قوله: ﴿غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ﴾ [البقرة: ١٧٣]، ومجاوزة قدر الحاجة، فالذنوب مثل اتباع الهوى بغير هدى من الله فهذا كله ذنب، كالذي يرضى لنفسه، ويغضب لنفسه، فهو متبع لهواه، و«الإسراف» كالذي يغضب لله، فيعاقب بأكثر مما أمر الله والآية في سياق قتال المشركين، وما أصابهم يوم أحد.

وقد أخبر عمن قبلهم بقوله: ﴿وَكَايْنٍ مِّن نَّبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦) وقد قيل على الصحيح، المراد به النبي ﷺ وإن لم يقتل في معركة فقد قتل أنبياء كثيرين، ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ (٤٦) وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ الآية.

فجمعوا بين الصبر والاستغفار، وهذا هو المأمور به في المصائب، الصبر عليها والاستغفار من الذنوب التي كانت سببها) ا.هـ^(٣).

(١) نقل عنه ابن الجوزي في المصدر السابق.

(٢) جامع المسائل (٤/٥٩ - ٦٦) وورد مختصراً في مجموع الفتاوى (١/٥٨ - ٦٣).

(٣) مجموع الفتاوى (١١/٦٩٣ - ٦٩٤).

﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (١٤٧).

(وأما قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فهذا ليس من التكرار في شيء فإن (قولهم) خبر (كان) قُدِّم على اسمها، و(أن قالوا): في تأويل المصدر، وهو الاسم فهما اسم كان وخبرها، والمعنى: وما كان لهم قول إلا قول: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾: ونظير هذا قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَتْ جَوَابَ قَوْمِهِ إِلَّا أَنْ قَالُوا﴾ [الأعراف: ٨٢] والجواب قول؛ وتقول: ما لفلان قول إلا قول: «لا حول ولا قوة إلا بالله» فلا تكرار أصلاً) ١. هـ^(١).

﴿فَقَالَتْ لَهُمْ اللَّهُ نَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسَنَ نَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ (١٤٨).

(ولهذا يذكر [الله] في عامة سور الإنذار ما عاقب به أهل السيئات في الدنيا، وما أعده لهم في الآخرة وقد يذكر في السورة وعد الآخرة فقط إذ عذاب الآخرة أعظم [وثوابها أعظم] وهي دار القرار وإنما يذكر ما يذكره من الثواب والعقاب في الدنيا تبعاً.

كقوله في قصة يوسف: ﴿وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الْأَرْضِ يَتَّبِعُونَ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَنْ يَشَاءُ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (٥١) ﴿وَلَا جُرْ الآخِرَةَ خَيْرٌ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ [يوسف]، وقال: ﴿فَقَالَتْ لَهُمْ اللَّهُ نَوَابِ الدُّنْيَا وَحَسَنَ نَوَابِ الآخِرَةِ﴾، وقال: ﴿وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مَا ظَلَمُوا لَنَبُوْتَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَا جُرْ الآخِرَةَ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ (٤١) الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٤٢) [النحل]، وقال عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: ﴿وَأَيَّتُهُ أَجْرُهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ [العنكبوت: ٢٧] ١. هـ^(٢).

﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ (١٥١).

(وقال: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ﴾ وفي حديث قرطبة^(٣) أن جبريل قال: «إني ذاهب إليهم فمززل بهم الحصن»^(٤) فتخويف الكفار

(١) مجموع الفتاوى (١٥/٢٧٧).

(٢) الاستقامة (٢/٢٣٦ - ٢٣٧).

(٣) هذا تصحيف والصحيح (بني قرطبة).

(٤) يراجع سيرة ابن هشام (٤/١٩٢)، وابن سعد في الطبقات (٢/٧٤).

المنافقين وإرعابهم هو من الله نصره للمؤمنين) ١. هـ^(١).

﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَا مَا تَحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَّفْنَا عَنْهُمْ صِغَارَ ظَنِّكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَىٰ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٦﴾﴾.

(﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَّعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرْسَلْنَا مَا تَحِبُّونَ﴾) فأخبر عن معصية واقعة معينة، وهي معصية الرماة للنبي ﷺ؛ حيث أمرهم بلزوم ثغرهم، وإن رأوا المسلمين قد انتصروا، فعصى من عصى منهم هذا الأمر، وجعل أميرهم يأمرهم لما رأوا الكفار منهزمين وأقبل من أقبل منهم على المغانم) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله فيمن فسر الآية بشكل خاطئ: (ونظير ذلك ما ذكره عن الشيلي رحمه الله أنه سمع قارئاً يقرأ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ فصرخ وقال: أين من يريد الله؟ فيحمد منه كونه أراد الله، ولكن غلط في ظنه أن الذين أرادوا الآخرة ما أرادوا الله.

وهذه الآية في أصحاب النبي ﷺ الذين كانوا معه بأحد، وهم أفضل الخلق، فإن لم يريدوا الله أفيريد الله من هو دونهم كالشيلي وأمثاله؟) ١. هـ^(٣).

﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِنْكُمْ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَجِّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٧﴾﴾.

(وذكر تعالى إنزال النعاس في قوله: ﴿ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِنْكُمْ﴾ هذا يوم أحد) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿فَأَنبَأَكُمُ عَمَّا يَخْمُرُ لِكَيْلًا تَحَرَّزْنَا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمُ وَلَا مَا أَصَابَكُمُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٧﴾﴾ ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا

(١) مجموع الفتاوى (١٤/٥٠٢).

(٢) مجموع الفتاوى (٧/٦١).

(٣) الاستقامة (٢/١٠٦ - ١٠٧).

(٤) مجموع الفتاوى (١٢/٢٥٠).

يَعْنَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَلْ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ مِنْ شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ مَا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَهُنَا قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِيَ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحَّصَ مَا فِي قُلُوبِكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ .

فهؤلاء كانوا في ظنهم ظن الجاهلية ظناً ينافي اليقين بالقدر، وظناً ينافي بأن الله ينصر رسوله، فكان عقابهم على ترك اليقين ووجود الشك، وظن الجاهلية) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى فيما جرى يوم أحد: ﴿طَائِفَةٌ مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ﴾ فسره ابن عباس^(٢) وغيره بأنهم ظنوا أن الله لم يقدر ما جرى وأنه لا ينصر رسوله فكما أن القدر يجب الإيمان به ويعلم أن كل ما كان فقد سبق به علم الرب فكذلك يعلم أنه لا بد أن ينصر رسله والذين آمنوا وكما أنه لا يجوز أن يقع خلاف المقدر فلا يجوز أن لا ينصر رسله والذين آمنوا، ومثله قوله تعالى فيما أنزله عام الحديبية لما ظن طائون أن الرسول وأتباعه لا يُنصرون فقال تعالى: ﴿وَيَعِدُوكَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّالِمِينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ ذَائِرَةُ السَّوْءِ وَعَصِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [الفتح] وهذا يدل على أن هذا ظن سوء بالله لا يجوز أن يظن به أنه يفعل ذلك ومن ينفي الحكمة يقول يجوز عليه فعل كل شيء وليس عنده ظن سوء بالله وإن قيل لما أخبر أنه ينصره كان ضد ذلك ظن سوء لأن خبره لا يقع بخلاف مخبره قيل عن هذا جوابان:

أحدهما: أن هؤلاء يلزمهم تجويز إخلاف الوعد عليه لأن هذا من باب الأفعال المقدورة وهم يجوزون كل مقدور وإذا قيل إخلاف الوعد قبيح فهم ليس عندهم شيء قبيح ينزهون الرب عنه.

الثاني: أنه إذا علم أنه يفعله ولو بالعلم الضروري فإنما ذاك لأنه واقع ولو قدر رجلاً ظن أن الله لا يفعل ما سيفعله مما ليس فيه ذم مثل أن يظن أنه يموت بعد شهر لم يقل إن هذا ظن سوء وإنما يكون ظن سوء إذا كان المظنون عيباً قبيحاً لا يجوز أن يضاف إلى المظنون به ومنه قوله تعالى: ﴿إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَوُضِعَ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَلْقُوبًا﴾ [الأحزاب]، فهذا ذم لمن ظن

(٢) «زاد المسير» عن ابن عباس (١/٤٨١).

(١) مجموع الفتاوى (١٤/١١٢).

بالله الظنوننا. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ﴾ (٢٥) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٢٦﴾ [القلم]، وهذا يقتضي أن هذا ممتنع عليه ومن حكم بجوازه فقد حكم حكماً باطلاً جائراً ممتنعاً كالذين جوزوا أن تكون له بنات وهم يكرهون أن تكون لهم بنات فيجوز على الله ما هو قبيح عندهم قال تعالى: ﴿وَيَجْعَلُونَ لِلَّهِ الْبَنَاتِ سُبْحَانَهُ وَلَهُمْ مَا يَشْتَهُونَ﴾ (٥٧) وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُمْ بِالْأُنثَىٰ ظَلَّ وَجْهُهُ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٥٨﴾ يَتَوَارَىٰ مِنَ الْقَوْمِ مِن سُوءِ مَا بُشِّرَ بِهِ أَيُمْسِكُهُ عَلَىٰ هُونٍ أَمْ يَدُسُّهُ فِي التُّرَابِ أَلَا سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿٥٩﴾ [النحل] ١. هـ (١).

﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَىٰ الْجَمْعَانَ إِنَّمَا أَسْرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٥).

(وأما التولي يوم أحد، فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَىٰ الْجَمْعَانَ إِنَّمَا أَسْرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٥) فقد عفا الله عن جميع المتولين يوم أحد، فدخل في العفو من هو دون عثمان، فكيف لا يدخل هو فيه مع فضله وكثرة حسناته؟! ١. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (ولهذا لما انهزم المسلمون يوم أحد وكانوا مع النبي ﷺ واستظهر عليهم العدو بين الله لهم أن ذلك بذنوبهم، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ آتَىٰ الْجَمْعَانَ إِنَّمَا أَسْرَلَهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (١٥٥) وقال تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَلَبْتُمْ مُصِيبَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أِنَّا هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٦٥] وبين سبحانه حكمة ابتلائهم، فقال تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكْفِرِينَ﴾ (١٣٧) هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ ﴿١٤٠﴾ وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا وَيَمْحَقَ الْكٰفِرِينَ ﴿١٤١﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿مَا أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ اللَّهِ وَمَا أَصَابَكَ مِنْ سَيِّئَةٍ فَمِنَ نَفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] والله قدرها، وقدر كل شيء) ١. هـ (٣).

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا

(١) النبوات (٢٣٤ - ٢٣٥).

(٢) منهاج السنة (٦/٢٩٨) راداً على الرافضي ابن مطهر الحلي.

(٣) مجموع الفتاوى (٣٥/٣٧٥).

عُزِّي لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾ .

(يَتَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا لَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ كَفَرُوا وَقَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا فِي الْأَرْضِ أَوْ كَانُوا عُزَّى لَوْ كَانُوا عِنْدَنَا مَا مَاتُوا وَمَا قُتِلُوا لِيَجْعَلَ اللَّهُ ذَلِكَ حَسْرَةً فِي قُلُوبِهِمْ) ، وهذا هو الذي نهى عنه النبي ﷺ، حيث قال: «وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان»^(١) أي تفتح عليك الحزن والجزع، وذلك يضر ولا ينفع، بل اعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك) ١. هـ^(٢).

﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ غَلِيظَ الْعِقَابِ لَافْتَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾﴾ .

(وقال تعالى: ﴿فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِن لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ غَلِيظَ الْعِقَابِ لَافْتَضُوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (فقال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾) وقد روي عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: «لم يكن أحد أكثر مشاورة لأصحابه من رسول الله ﷺ»^(٤) وقد قيل: إن الله أمر بها نبيه لتأليف قلوب أصحابه وليقتدي به من بعده، وليستخرج بها منهم الرأي فيما لم ينزل فيه وحي: من أمر الحروب، والأمور الجزئية، وغير ذلك فغيره ﷺ أولى بالمشورة.

وقد أثنى الله على المؤمنين بذلك في قوله: ﴿فَأَ أُوتِيتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَمَتَّعُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٣٦﴾ وَالَّذِينَ يَجْنَبُونَ كَثِيرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ﴿٣٧﴾ وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [الشورى]، وإذا استشارهم، فإن بين له بعضهم ما يجب اتباعه من كتاب الله أو سنة رسوله أو إجماع المسلمين، فعليه اتباع ذلك، ولا طاعة لأحد في خلاف ذلك، وإن كان عظيماً في الدين والدنيا) ١. هـ^(٥).

(١) مسلم (٢٦٦٤).
(٢) مجموع الفتاوى (١٨/٣٤٧ - ٣٤٨).

(٣) منهاج السنة (٣٠٧/٥).

(٤) ابن أبي حاتم (آل عمران ١ - ١٧٤٢) وعبد الرزاق في «مصنفه» (٩٧٢٠) وأحمد في «مسنده» (٣٢٨/٤) وغيرهم، وهذا جزء من حديث أصله في البخاري وليس فيه كلام أبي هريرة.

(٥) مجموع الفتاوى (٢٨/٣٨٦ - ٣٨٧).

وقال رحمه الله: (وهل يجوز وصفه بالعزم؟ فيه قولان. أحدهما المنع، كقول القاضي أبي بكر، والقاضي أبي يعلى؛ والثاني الجواز، وهو أصح فقد قرأ جماعة من السلف (فإذا عزمت فتوكل على الله) بالضم) ا. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ ١٥٩) إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٥﴾، فأمره إذا عزم أن يتوكل على الله، فلو كان المتوكل لا يعينه على مثلما عزم عليه لم يكن به عند العزم فائدة، يبين سبحانه أنه هو الناصر دون غيره فقال: ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ فنهى عن التوكل على غيره، وأمر بالتوكل عليه ليحصل للمتوكل عليه النصر الذي لا يقدر عليه غيره، وإلا فالمتوكل على غيره يطلب منه النصر، فإن كان ذلك المطلوب لا يحصل منه لم يكن لذكر انفراده بالنصر معنى، فإنه على هذا القول نصره لمن توكل عليه كنصره لمن لم يتوكل عليه، وهذا يناقض مقصود الآية، بل عند هؤلاء قد ينصر من يتوكل على غيره ولا ينصر من توكل عليه! فكيف يأمر بالتوكل عليه دون غيره مقرراً بقوله: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ ١٦٥؟) ا. هـ^(٢).

﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ١٦٦) .

(وقد قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيِّ أَنْ يُغْلَ وَمَنْ يَغْلُ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ وفيه قراءتان: يُغْلَ وَيَغْلُ، أي ينسب إلى الغلول، بين سبحانه أنه ما لأحد أن ينسبه إلى الغلول، كما أنه ليس له أن يغل، فدل على أن النبي لا يكون غالاً) ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (وقد روى البخاري حديثهم من عدة أوجه، وهؤلاء أولهم قال للنبي ﷺ: يا محمد! اعدل فإنك لم تعدل. فمن جوز عليه أن يظلمه فلا يعدل كمن يوجب طاعته فيما ظلم فيه: إنهم يوجبون اتباع ما بلغه عن الله وهذا من جهلهم وتناقضهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «ويحك! ومن يعدل إذا لم أعدل؟!» وقال: «لقد

(١) مجموع الفتاوى (٣٠٣/١٦) والقراءة ذكرها ابن الجوزي في «زاد المسير» (٤٨٩/١).

(٢) جامع الرسائل (٩٥/١). (٣) منهاج السنة (٤٢١/٢).

خبت وخسرت إن لم أعدل»، أي إن اتبعت من هو غير عادل فأنت خائب خاسر وقال: «أيأمني من في السماء ولا تأمنوني؟!»^(١).

يقول: إذا كان الله قد ائتمني على تبليغ كلامه أفلا تأمنوني على أن أؤدي الأمانة إلى الله؟ قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾^(٢) .

وقال رحمه الله: (إذا كان الإمام يجمع الغنائم ويقسمها لم يجز لأحد أن يغلّ منها شيئاً ﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا عَلَّ يَوْمَ الْقِيَمَةِ﴾ فإن الغلول خيانة) ا.هـ^(٣).

﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ ءَايَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾^(٤).

(وفي قوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾ [التوبة: ١٢٨] [و] ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ قولان: قيل: هو خطاب للعرب^(٥)، وقيل: هو خطاب لجميع الناس^(٥).

والتحقيق: أنه خاطب به أولاً [العرب]، بل خاطب به أولاً قريش، [ثم] العرب، ثم سائر الناس من أهل الكتاب والأمة غير العرب.

فقوله: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ﴾: الكاف كاف الخطاب، فهو خطاب لمن جاءه الرسول وبلغه القرآن الذي جاء به، كما قال: ﴿لَا نُذِرْكُمْ بِهِ وَوَمَنْ بَلَغَ﴾ [الأنعام: ١٩] فكل من بلغه القرآن فهو مخاطب بهذه الآية، من جميع الأمم، وهو من أنفسهم من الإنس، ليس من الملائكة، فإنه لو كان من الملائكة لم يطبقوا الأخذ عنه) ا.هـ^(٦).

وقال رحمه الله: (والله سبحانه بعث محمداً بالكتاب والسنة، وبهما أتم على أمته المنة قال تعالى: ﴿وَلَأْتِيَنَّكُمْ يَمَعِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾^(٧) كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾^(٨)

(١) البخاري (٢١/٩). (٢) مجموع الفتاوى (١٩/٨٦ - ٨٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٧٢).

(٤) روى ابن أبي حاتم عن عائشة في هذه الآية أنها قالت: هذه في العرب خاصة، ابن أبي حاتم (سورة آل عمران - ٢ - ص ٦٤٧ - ٦٤٨). ونسبه السيوطي في الدر (٢/٣٦٧) إلى ابن المنذر والبيهقي في الشعب إضافة لابن أبي حاتم، واختار هذا القول الطبري (١٤/٥٨٤ - محقق) وابن عطية (٨/٣٠٦)، ويراجع زاد السير (١/٤٩٤).

(٥) اختاره الزجاج كما في معاني القرآن (١/٤٨٧) (٢/٤٧٧).

(٦) تفسير آيات أشكلت (١/٢٣٥ - ٢٣٦).

فَأَذْرُوبِي أَذْكُرْكُمْ وَأَشْكُرُوا لِي وَلَا تَكْفُرُونِ ﴿١٥٧﴾ [البقرة]، وقال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيَّةِنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الجمعة: ٢]، وقال تعالى عن الخليل: ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة: ١٢٩]، وقال تعالى: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وقد قال غير واحد من العلماء: منهم يحيى بن أبي كثير، وقاتدة والشافعي^(١) وغيرهم الحكمة: هي السنة لأن الله أمر أزواج نبيه أن يذكرن ما يتلى في بيوتهن من الكتاب والحكمة والقرآن، وما سوى ذلك مما كان الرسول يتلوه هو السنة) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (ومن ذلك قوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾، وقد وصف الرسول بذلك في مواضع فذكر هذا في البقرة في دعوة إبراهيم وفي قوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وفي قوله: ﴿وَأَذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَا أَنزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِ وَأَتَقُوا اللَّهَ﴾ [البقرة: ٢٣١]، وهنا لم يذكر يتلو عليهم آياته ويزكيهم لحكمة تختص بذلك وذكر هذا في آل عمران في قوله: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وقد قال: ﴿وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةَ﴾ [الأحزاب: ٣٤]، وهذا شبه الموضوع الثالث في البقرة فأخبر في غير موضع عن الرسول أنه يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة فالتلاوة والتزكية عامة لجميع المؤمنين، فتلاوة الآيات يحصل بها العلم؛ فإن الآيات هي العلامات والدلالات فإذا سمعوها دلتهم على المطلوب من تصديق الرسول فيما أخبر والإقرار بوجوب طاعته وأما التزكية فهي تحصل بطاعته فيما يأمرهم به من عبادة الله وحده وطاعته، فالتزكية تكون بطاعة أمره كما أن تلاوة آياته يحصل بها العلم وسميت آيات القرآن آيات وقيل: إنها آيات الله كقوله: ﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ

تَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ ﴿١٠٨﴾ [آل عمران: ١٠٨]، لأنها علامات ودلالات على الله وعلى ما أراد فهي تدل على ما أخبر به وعلى ما أمر به ونهى عنه وتدل أيضاً على أن الرسول صادق إذ كانت مما لا يستطيع الإنس والجن أن يأتوا بمثلها وقد تحداهم بذلك كما قد بسط هذا في غير هذا الموضوع. وأيضاً فهي نفسها فيها من بينات الأدلة والبراهين ما يبين الحق فهي آيات من وجوه متعددة ثم قال: ﴿وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وهذا لمن يعلم ذلك منهم وقد يتعلم الشخص منهم بعض الكتاب والحكمة فالكتاب هو الكلام المنزل الذي يكتب والحكمة هي السنة وهي معرفة الدين والعمل به وقد قال تعالى: ﴿وَمَا تُغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذْرُ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [يونس: ١٠١] وقال تعالى: ﴿وَاتَّخَذُوا آيَاتِي وَمَا أُنذِرُوا هُزُوًا﴾ [الكهف: ٥٦] ففرق بين الآيات الدالة على العلم التي يعلم بالعقل أنها دلائل للرب وبين النذر وهو الإخبار عن المخوف كإخبار الأنبياء بما يستحقه العصاة من العذاب فهذا يعلم بالخبر والنذر؛ ولهذا قال: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥] وأما الآيات فتعلم دلالتها بالعقل، والأنبياء جاؤوا بالآيات والنذر، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَتَتْلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْمُونَ﴾ [١٥٤] بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبُرِ ﴿[النحل] وقال تعالى: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُونَ فَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ وَالزَّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [فاطر: ٢٥] ومثل هذا كثير يذكر أن جميع الأنبياء جاؤوا بالآيات التي تعلم دلالتها بالعقل) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأما احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا﴾ [البقرة: ١٥١] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ﴾ فهذا كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة] وهذا في عمومه نزاع، فإنه إما أن يكون خطاباً لجميع الناس، ويكون المراد إنا بعثنا إليكم رسولاً من البشر، إذ كنتم لا تطيقون أن تأخذوا عن ملك من الملائكة، فمن الله عليكم بأن أرسل إليكم رسولاً بشرياً.

قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنْزَلْنَا مَلَكًا لَفُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ﴾ [٨] وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبَسُونَ ﴿[الأنعام].

وإما أن يكون الخطاب للعرب، وعلى التقديرين، فإن ما^(١) تضمن ذكره إنعامه على المخاطبين بإرساله رسولا من جنسهم، وليس في هذا ما يمنع أن يكون مرسلأ إلى غيرهم، فإنه إن كان خطاباً للإنس كلهم، فهو أيضاً مرسل إلى الجن، وليس من جنسهم، فكيف يمتنع إذا كان خطاباً للعرب بما امتن به عليهم، أن يكون قد امتن على غيرهم بذلك، فالعجم أقرب إلى العرب من الجن إلى الإنس، وقد أخبر في الكتاب العزيز أن الجن لما سمعوا القرآن آمنوا به.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ ﴿٦٩﴾ قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٧٠﴾ يَا قَوْمَنَا أَجِيبُوا دَاعِيَ اللَّهِ وَآمِنُوا بِهِ يَغْفِرَ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٧١﴾ وَمَنْ لَا يُجِبْ دَاعِيَ اللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الْأَرْضِ ﴿[الأحقاف]: ١. هـ. (٢)﴾.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأنبياء] وقال النبي ﷺ: «إنما أنا رحمة مهداة»^(٣) ولأن هذا من جملة إحسانه إلى الخلق بالتعليم والهداية، وبيان ما ينفعهم وما يضرهم، كما قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ فبين تعالى أن هذا من مننه على عبادة المؤمنين) ١. هـ. (٤).

وقال رحمه الله: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣] وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ وقال: ﴿وَأَذَكَّرْنَا مَا يَتْلَىٰ فِي بُيُوتِكُمْ مِّنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

قال غير واحد من السلف: الحكمة هي السنة لأن الذي كان يتلى في بيوت

(١) كذا بالفصل، ولا عائد للموصول، وإذا وصلت يكون أوضح.

(٢) الجواب الصحيح (١/٤٤٠ - ٤٤١).

(٣) البزار (٢/٢١٧) والطبراني في «الصغير» (١/٩٥) و«الأوسط» (٣١٣ - مجمع البحرين)، وابن الأعرابي في المعجم (٢/٢٤٧) والحاكم (١/٣٥) وابن سعد في «الطبقات» (١/١٩٢) والكامل لابن عدي (١/٢٢٣) وهو حديث حسن إن شاء الله.

(٤) مجموع الفتاوى (٦/١٣١).

أزواجه رضي الله عنهن سوى القرآن هو سنة ﷺ، ولهذا قال ﷺ: «ألا وإنني أوتيت الكتاب ومثله معه»^(١)، وقال حسان بن عطية: كان جبريل ﷺ ينزل على النبي ﷺ بالسنة كما ينزل بالقرآن فيعلمه إياها كما يعلمه القرآن^(٢) ١. هـ^(٣).

﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١١٥).

(ولما انهزم المسلمون يوم أحد هزمهم الكفار قال الله تعالى: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١١٥) ١. هـ^(٤)).

وقال رحمه الله: (وقد تقدم قول ابن عباس وغيره: إن ما أصابهم يوم أحد كان بذنوبهم، لم يستثن من ذلك أحداً؛ وهذا من فوائد تخصيص الخطاب لثلاث يظن أنه عام مخصوص) ١. هـ^(٥).

وقال رحمه الله: (وأخبر أن ما يحصل له من مصيبة انتصار العدو وغيرها، إنما هو بذنوبهم، فقال تعالى في يوم أحد: ﴿أَوْ لَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ﴾^(١١٥) ١. هـ^(٦)).

﴿وَمَا أَصَبْتُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١١٦).

(وكذلك قوله: ﴿وَمَا أَصَبْتُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ﴾ فإن الذي أصابهم من القتل والجراح والتمثيل والهزيمة: إذا كان بإذنه فهو خالق لأفعال الكفار ولأفعال المؤمنين) ١. هـ^(٧).

وقال رحمه الله: ﴿﴿وَمَا أَصَبْتُمْ يَوْمَ التَّقِي الْجَمْعَانِ فَيَاذَنَ اللَّهُ وَلَيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(١١٦) وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾^(١١٧) فقوله: ﴿وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا﴾ ظاهر فيمن أحدث نفاقاً وهو يتناول من لم ينافق قبل، ومن نافق ثم جدد نفاقاً ثانياً وقوله: ﴿هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾

- (١) أبو داود (٤٦٠٤) وابن ماجه (١٢) وأحمد (١٣١/٤) والحديث صحيح.
 (٢) رواه الدارمي رقم (٥٨٨).
 (٣) مجموع الفتاوى (٣/٣٦٦).
 (٤) منهاج السنة (٤/٥٤٧).
 (٥) مجموع الفتاوى (٨/٢٢٥).
 (٦) جامع الرسائل (٢/٣٣٢).
 (٧) مجموع الفتاوى (١٤/٣٨٤).

يبين أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم بل إما أن يتساويا وإما أن يكونوا للإيمان أقرب، وكذلك كان؛ فإن ابن أبي لما انخزل عن النبي ﷺ يوم أحد انخزل معه ثلث الناس قيل: كانوا نحو ثلاثمائة وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كلهم منافقين في الباطن، إذ لم يكن لهم داع إلى النفاق) ١. هـ^(١).

﴿وَلْيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٧﴾﴾.

(قوله تعالى: ﴿هُم لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب، فلما كان يوم أحد غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب) ١. هـ^(٢).

وقال القاسمي رحمه الله: قال الشيخ تقي الدين: (كان الصحابة والسلف يقولون: إنه يكون في العبد إيمان ونفاق، وهذا يدل عليه قوله ﷺ: ﴿هُم لِلْكَفْرِ يَوْمِيذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ﴾ وهذا كثير في كلام السلف يبينون أن القلب يكون فيه إيمان ونفاق والكتاب والسنة يدل على ذلك ولهذا قال النبي ﷺ: «يخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان»^(٣) فعلم أن من كان معه من الإيمان أقل قليل لم يخلد في النار وإن كان معه كثير من النفاق، فهذا يعذب في النار على قدر ما معه ثم يخرج إلى أن قال^(٤): وتمام هذا أن الإنسان قد يكون فيه شعبة من شعب الإيمان وشعبة من شعب الكفر وشعبة من شعب النفاق.

وقد يكون مسلماً وفيه كفر دون كفر الذي ينقل عن الإسلام بالكلية، كما قال الصحابة، ابن عباس وغيره: كفر دون كفر^(٥) وهذا عامة قول السلف) ١. هـ^(٦).

﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾﴾.

(وقد روى مسلم في صحيحه عن مسروق قال: سألتنا عبد الله - يعني ابن مسعود - عن هذه الآية: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾،

(١) مجموع الفتاوى (٧/٢٧٩ - ٢٨٠).

(٢) أي شيخ الإسلام.

(٣) هذا سيرد في سورة المائدة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَّمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [٤٤].

(٤) نقل هذا العلامة القاسمي في تفسيره (٥/٢٢٧ - ٢٢٨).

فقال: أما إنا قد سألنا عن ذلك رسول الله ﷺ فقال: «إن أرواحهم في جوف طير خضر، لها قناديل معلقة بالعرش، تسرح في الجنة حيث تشاء ثم تأوي إلى تلك القناديل، فاطلع عليهم ربك اطلاعة فقال: هل تشتهون شيئاً؟ فقالوا: أي شيء نشتهي ونحن نسرح في الجنة حيث نشاء؟ ففعل بهم ذلك ثلاث مرات - فلما رأوا أنهم لن يتركوها من أن يسألوا قالوا: يا رب نريد أن ترد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتل في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة تركوا»^(١) ا. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (ومعلوم أن من قتل من المؤمنين شهيداً في القتال كان حاله أكمل من حال من يموت حتف أنفه، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْفَعُونَ﴾ ا. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (وقال في الشهداء: ﴿أَحْيَاءُ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْفَعُونَ﴾ قيل لهم شهداء: لأنهم يشهدون ملكوت الله، واحدهم شهيد، كما يقال: عليم وعلماء، وكفيل وكفلاء) ا. هـ (٤).

﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ ا. هـ (٥).

(وكان النبي ﷺ قد وكل بثغرة الجبل الرماة، وأمرهم بحفظ ذلك المكان، وأن لا يأتوهم سواء غلبوا أو غلبوا، فلما انهزم المشركون صاح بعضهم: أي قوم الغنيمة! فنهاهم أميرهم عبد الله بن جبير، ورجع العدو عليهم وأمير المشركين إذ ذاك خالد بن الوليد، فأتاهم من ظهورهم، فصاح الشيطان: قتل محمد، واستشهد في ذلك اليوم نحو سبعين، ولم يبق مع النبي ﷺ ذلك اليوم إلا اثنا عشر رجلاً، فيهم أبو بكر وعمر. وأشرف أبو سفيان فقال: أفي القوم محمد؟ أفي القوم محمد؟.

والحديث في الصحيحين، وقد تقدم لفظه وكان يوم بلاء وفتنة وتمحيص، وانصرف العدو عنهم منتصراً، حتى هم بالعود إليهم فندب النبي ﷺ المسلمين للحاقه^(٥)، وقيل إن في هؤلاء نزل قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا

(٢) مجموع الفتاوى (٤/٢٢٤ - ٢٢٥).

(٤) مجموع الفتاوى (٥/٤٠٥).

(١) مسلم (١٨٨٧).

(٣) الجواب الصحيح (٦/٤١٣).

(٥) هذا الحديث بنصه في أحمد عن ابن عباس (٢٦٠٩) وإسناده حسن وأخرجه كذا ابن أبي حاتم في تفسيره (١٦٤٤ - آل عمران) والطبراني (١٠٧٣١) والحاكم (٢/٢٩٦ - ٢٩٧) والبيهقي في =

أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ ﴿١﴾ وكان في هؤلاء المنتدبين: أبو بكر والزبير. قالت عائشة لابن الزبير (١):
 أبوك وجدك ممن قال الله فيهم: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِ مَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾
 ولم يقتل يومئذٍ من المشركين إلا نفر قليل، وقصد العدو رسول الله ﷺ واجتهدوا في
 قتله، وكان ممن ذب عنه يومئذٍ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وجعل يرمي عنه، والنبى ﷺ
 يقول له: «ارم فداك أبي وأمي» (٢).

وفي الصحيحين عن سعد قال: جمع لي رسول الله ﷺ بين أبويه يوم أحد، وكان سعد
 مجاب الدعوة مسدد الرمية، وكان فيهم أبو طلحة رامياً وكان شديد النزع، وطلحة بن
 عبيد الله: وقى النبي ﷺ بيده فشلت يده، وظاهر النبي ﷺ بين درعين، وقتل دونه نفر (٣) .

﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا
 اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٦﴾ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ مِّنَ اللَّهِ وَفَضَّلِ لَمْ يَمْسَسْهُمْ سُوءٌ وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ
 ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٧﴾﴾ .

(قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا
 وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٦﴾﴾ أي الله وحده كافينا كلنا .

وفي البخاري عن ابن عباس في هذه الكلمة: «قالها إبراهيم حين ألقى في النار،
 وقالها محمد حين قال لهم الناس: إن الناس قد جمعوا» (٤) (٥) .

وقال رحمه الله: (هذا قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ
 فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٦﴾﴾ وإنما زادهم طمأنينة
 وسكوناً) . (٦)

وقال رحمه الله: (﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ﴾ لم يقل جميع
 الناس، ولا قال: إن جميع الناس قد جمعوا لكم؛ بل المراد به الجنس) . (٧)

= (دلائل النبوة) (٣/٢٦٩ - ٢٧١) وهو من مراسلات ابن عباس فإنه لم يشهد أحداً ولكن له
 شواهد منها في البخاري (٣٠٣٩، ٤٠٤٣)، ومنها في مسلم (١٧٩٣) والله أعلم .

(١) حديث عائشة عند البخاري (١٠٢/٥)، ومسلم (٤/١٨٨٠) .

(٢) الحديث في البخاري (٢٢/٥)، ومسلم (٤/١٨٧٦) .

(٣) منهاج السنة (٨/٩٧ - ٩٩) . (٤) البخاري (٦/٣٩) .

(٥) منهاج السنة (٧/٢٠٤) مجموع الفتاوى (١/٣٠٦) (١/١٨٣) (٧/٢٠٤) (١٠/٣٣) (٢٦/١٥٨) .

(٦) مجموع الفتاوى (٧/٥٦٤) . (٧) مجموع الفتاوى (١٥/٤٧) .

وقال رحمه الله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَمَا أَتَاهُمْ فَرَادَهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿٧٧﴾﴾، وكان جنس الناس قالوا لهم: إن جنس الناس قد جمعوا، ويمتنع العموم؛ فإن القائل من الناس، والمقول له من الناس، والمقول عنه من الناس، ويمتنع أن يكون جميع الناس قال لجميع الناس: إنه قد جمع لكم جميع الناس) ١. هـ (١).

وقال رحمه الله: (وقد ذكر الله هذه الكلمة (حسبي الله) في جلب المنفعة تارة، وفي دفع المضرة أخرى (فالأولى) في قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩] و(الثانية) في قوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَمَا أَتَاهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿٧٧﴾﴾ وفي قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي آتَاكَ بِضُرِّهِ﴾ [الأنفال: ٦٢] وقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩] يتضمن الأمر بالرضا والتوكل) ١. هـ (٢).

وقال رحمه الله: (وأما الحسب وهو الكافي فهو الله وحده، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدِ جَمَعُوا لَكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ فَمَا أَتَاهُمْ إِيْمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿٧٧﴾﴾ وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال] أي حسبك وحسب من اتبعك الله، ومن ظن أن المعنى حسبك الله والمؤمنون معه فقد غلط غلطاً فاحشاً كما قد بسطناه في غير هذا الموضع وقال تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾ [الزمر: ٣٦] ١. هـ (٣).

وقال رحمه الله: (ثم قال تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ ولم يقل «ورسوله» فإن الحسب هو الكافي، والله وحده كاف عباده المؤمنين كما قال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [الأنفال] أي هو وحده حسبك وحسب من اتبعك من المؤمنين هذا هو القول الصواب الذي قاله جمهور السلف والخلف كما بين في موضع آخر.

والمراد أن الله كاف للرسول ولمن اتبعه، فكل من اتبع الرسول فالله كافيه وهاديه وناصره ورازقه، ثم قال تعالى: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ [التوبة: ٥٩] فذكر

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/٣٦ - ٣٧).

(١) الجواب الصحيح (٣/١١١).

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/١٥٤).

الإيتاء لله ورسوله، لكن وسطه بذكر الفضل فإن الفضل لله وحده بقوله: ﴿سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ﴾ ثم قال تعالى: ﴿إِلَى اللَّهِ رِغْبُوتُ﴾ [التوبة: ٥٩] فجعل الرغبة إلى الله وحده دون الرسول وغيره من المخلوقات) ا.هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وأما في الحسب فأمرهم أن يقولوا: ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ﴾ لا يقولوا: حسبنا الله ورسوله ويقولوا: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رِغْبُوتُ﴾ لم يأمرهم أن يقولوا: إنا لله ورسوله راغبون، فالرغبة إلى الله وحده كما قال تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور] فجعل الطاعة لله والرسول، وجعل الخشية والتقوى لله وحده) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾)، فمدحوه سبحانه بأنه نعم الوكيل لما توكلوا عليه بقولهم: حسبنا الله، أي كافينا الله، لا يستحق المدح إن لم يجلب لمن توكل عليه منفعة ويدفع عنه مضرة، والله خير من توكل العباد عليه، فهو نعم الوكيل: يجلب لهم كل خير ويدفع عنهم كل شر) ا.هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾) فهذه الزيادة عند تخويفهم بالعدو لم تكن عند آية نزلت فازدادوا يقيناً وتوكلاً على الله وثباتاً على الجهاد وتوحيداً بأن لا يخافوا المخلوق؛ بل يخافون الخالق وحده) ا.هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ فَانْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ فَغَدَّوْا وَاتَّبَعُوا رِضْوَانَ اللَّهِ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ﴾)، فعقب هذا الجزاء والحكم لذلك الوصف والعمل بحرف الفاء وهي تفيد السبب، فدل ذلك على أن ذلك التوكل هو سبب هذا الانقلاب بنعمة من الله وفضل، وأن هذا الجزاء جزاء على ذلك العمل.

وفي الأثر: من سره أن يكون أقوى الناس فليتوكل على الله^(٥)، فلو كان التوكل لا يجلب منفعة ولا يدفع مضرة لم يكن المتوكل أقوى من غيره) ا.هـ^(٦).

- (١) مجموع الفتاوى (١/٢٩٣).
 (٢) مجموع الفتاوى (١/١٨١).
 (٣) جامع الرسائل (١/٨٩).
 (٤) مجموع الفتاوى (٧/٢٢٨).
 (٥) هذا ورد عن السلف رحمهم الله.
 (٦) جامع الرسائل (١/٩٠).

﴿ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧٥).

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أي يخوفكم أوليائه بما يقذف في قلوبكم من الوسوسة المرعبة، كشیطان الإنس الذي يخوف من العدو فيزجف ويخذل) ا.هـ (١).

وقال رحمه الله: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ (١٧٥) فهى المؤمنين عن خوف أولياء الشيطان، وأمرهم بخوفه، وخوفه يوجب فعل ما أمر به، وترك ما نهى عنه، والاستغفار من الذنوب، وحينئذ يندفع البلاء وينتصر على الأعداء) ا.هـ (٢).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا ذَلِكَ الشَّيْطَانُ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ ﴾ أي يخوفكم أوليائه ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴾ هذا هو الصواب الذي عليه جمهور المفسرين؛ كابن عباس وغيره وأهل اللغة كالفراء وغيره، قال ابن الأنباري: والذي نختاره في الآية: يخوفكم أوليائه تقول العرب: أعطيت الأموال: أي أعطيت القوم الأموال فيحذفون المفعول الأول (٣).

قلت: وهذا لأن الشيطان يخوف الناس أوليائه تخويفاً مطلقاً، ليس له في تخويف الناس بناس ضرورة؛ فحذف الأول لأنه ليس مقصوداً.

وقال بعض المفسرين: يخوف أولياء المنافقين، والأول أظهر؛ لأنها نزلت بسبب تخويفهم من الكفار؛ فهي إنما نزلت فيمن خوف المؤمنين من الناس وقد قال: ﴿ يَخَوْفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾ الضمير عائد إلى أولياء الشيطان؛ الذين قال فيهم: ﴿ فَاحْشَوْهُمْ ﴾ قبلها، والذي قال الثاني: فسرها من جهة المعنى، وهو أن الشيطان إنما يخوف أوليائه؛ لأن سلطانه عليهم؛ فهو يدخل عليهم المخاوف دائماً، وإن كانوا ذوي عدد وعدد، وأما المؤمنون فهم متوكلون على الله لا يخوفهم الكفار، أو أنهم أرادوا المفعول الأول؛ أي يخوف المنافقين أوليائه، وهو يخوف الكفار، كما يخوف المنافقين، ولو أريد أنه يجعل أوليائه خائفين لم يكن للضمير ما يعود عليه؛ وهو قوله: ﴿ فَلَا تَخَافُوهُمْ ﴾.

(١) مجموع الفتاوى (١/١٣٥) (٤/٣٤) (١٧/٥٢٤).

(٢) مجموع الفتاوى (٨/١٦٤).

(٣) يراجع لهذه الأقوال «زاد المسير» (١/٥٠٧).

وأيضاً فإنه يعد أولياءه ويمنيهم؛ ولكن الكفار يلقي الله في قلوبهم الرعب من المؤمنين، والشیطان لا يختار ذلك، قال تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهَبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنْ اللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣] وقال: ﴿سَأَلْتِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾ [الأنفال: ١٢]؛ ولكن الذين قالوا ذلك من السلف أرادوا أن الشيطان يخوف الذين أظهروا الإسلام وهم يوالون العدو فصاروا بذلك منافقين؛ وإنما يخاف من الكفار المنافقون بتخويف الشيطان لهم، كما قال تعالى: ﴿وَلِكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ﴾ [التوبة: ٥٦] وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ﴾ [الأحزاب: ١٩] فكلا القولين صحيح من حيث المعنى؛ لكن لفظ أولياءه هم الذين يجعلهم الشيطان مخوفين لا خائفين، كما دل عليه السياق، وإذا جعلهم مخوفين فإنما يخافهم من خوفه الشيطان منهم.

فدلت الآية على أن الشيطان يجعل أولياءه مخوفين، ويجعل ناساً خائفين منهم. ودلت الآية على أن المؤمن لا يجوز له أن يخاف أولياء الشيطان، ولا يخاف الناس كما قال: ﴿فَلَا تَخْشَوْا أَلْنَاكَسَ وَأَخْشَوْنَ﴾ [المائدة: ٤٤] فخوف الله أمر به وخوف أولياء الشيطان نهى عنه قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنَ﴾ [البقرة: ١٥٠] فنهى عن خشية الظالم وأمر بخشيته، وقال: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: ٣٩] وقال: ﴿وَأَيْنَ فَازَهُبُونَ﴾ [البقرة: ٤٠].

وبعض الناس يقول: يا رب إني أخافك وأخاف من لا يخافك، فهذا كلام ساقط لا يجوز؛ بل على العبد أن يخاف الله وحده ولا يخاف أحداً، فإن من لا يخاف الله أذل من أن يخاف، فإنه ظالم وهو من أولياء الشيطان، فالخوف منه قد نهى الله عنه، وإذا قيل: قد يؤذيني قيل: إنما يؤذيك بتسليط الله له، وإذا أراد الله دفع شره عنك دفعه، فالأمر لله؛ وإنما يسلط على العبد بذنوبه، وأنت إذا خفت الله فاتقته وتوكلت عليه كفاك شر كل شر، ولم يسلطه عليك، فإنه قال: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق: ٣] وتسليطه يكون بسبب ذنوبك وخوفك منه فإذا خفت الله وتبت من ذنوبك واستغفرت له لم يسلط عليك، كما قال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ﴾ [الأنفال: ٣٣].

وفي الآثار: «يقول الله: أنا الله لا إله إلا أنا ملك الملوك، قلوب الملوك ونواصيها بيدي، فمن أطاعني جعلت قلوب الملوك عليه رحمة، ومن عصاني جعلتهم عليه نقمة، فلا تشغلوا أنفسكم بسبب الملوك؛ ولكن توبوا إلي وأطيعون

والكلام في مثل هذا الجنس، الذي يوالي بعضهم بعضاً، ويتبع بعضهم بعضاً كاليهود، الذين هم على دين سلفهم الذين فعلوا ذلك.

ولهذا يذمهم بصيغة الخطاب كقوله: ﴿وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَمْجَيْنَكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ نَظَّارُونَ﴾ [البقرة: ٥٥] فالخطاب لجنس بني إسرائيل، وإن كان الذين عاينوا ذلك ماتوا ثم قال: ﴿فَإِنْ كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّنْ قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾ [البقرة: ١٧٤] فحذف هنا الفاعل، وبني الفعل للمفعول، إذ المقصود هنا: تسلية الرسول وتعزيتة، لا ذكر عقوبة المكذبين، فلهذا كانت هذه أخص من تلك (١) هـ.

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ﴾ أي يخوفكم أوليائه ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا مِنِّي إِن كُنْتُمْ مُّؤْمِنِينَ﴾ [١٧٥] (٢). هذا هو الصواب الذي عليه جمهور المفسرين (٣)، كابن عباس وسعيد بن جبيرة وعكرمة والنخعي، وأهل اللغة كالفراء (٤) وابن قتيبة (٥) والزجاج (٦) وابن الأنباري. وعبارة الفراء: يخوفكم بأوليائه، كما قال: ﴿لِيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ﴾ [الكهف: ٢] أي ببأس، وقوله: ﴿لِيُنذِرَ يَوْمَ التَّلَاقِ﴾ [غافر] أي بيوم التلاق. وعبارة الزجاج: يُخَوِّفُكُمْ مِنْ أَوْلِيَائِهِ. قال أبو بكر الأنباري (٧): والذي نختاره في الآية أن المعنى يخوفكم أوليائه، يقول العرب: أعطيتُ الأموال، أي أعطيتُ القومَ الأموالَ، فيحذفون المفعول الأول، ويقتصرون على ذكر الثاني. قال: فهذا أشبه من ادعاء «باء»، وما عليها دليلٌ ولا تدعو إليها ضرورة.

قلت: وهذا لأن الشيطان يُخَوِّفُ النَّاسَ أَوْلِيَائَهُ تخويفاً مطلقاً، ليس له في تخويفِ ناسٍ ضرورة، فحذف الأول لأنه ليس مقصوداً. وهذا يسمى حذف اقتصار، كما يقال: فلانٌ يُعْطِي الأَمْوَالَ والدراهم.

وقد قال بعض المفسرين (٨): إن المراد يخوفُ أوليائه المنافقين، ونُقِلَ هذا عن

(١) مجموع الفتاوى (٦/٣٨٤ - ٣٨٦). (٢) سورة آل عمران: ١٧٥.

(٣) انظر تفسير الطبري (٤/١٢٢) و«زاد المسير» (١/٥٠٦).

(٤) معاني القرآن (١/٢٤٨). (٥) تفسير غريب القرآن: (ص ١١٦).

(٦) معاني القرآن (١/٤٩٠).

(٧) نقل عنه ابن الجوزي في «زاد المسير» (١/٥٠٧).

(٨) نقل عنهم الطبري (٤/١٢٢) وابن الجوزي في «زاد المسير» (١/٥٠٧).

الحسن والسدي. وهذا له وجهٌ سنذكره، لكن الأول أظهر، لأن الآية إنما نزلت بسبب تخويفهم من الكفار. قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٦﴾﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّمَا ذَلِكَمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ﴾، ثم قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ إِن كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾. فإنما نزلت فيمن خَوَّفَ المؤمنين من الناس، وقد قال تعالى: ﴿يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُ﴾ ثم قال: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُوا اللَّهَ﴾. والضمير عائد إلى أوليائه الذين قيل فيهم ﴿فَاخْشَوْهُمْ﴾.

وأما ذلك القول فالذي قاله فَسَّرَهَا من جهة المعنى أن الشيطان إنما يخوِّف أوليائه، وأما المؤمنون فهم متوكلون على الله لا يُخَوِّفُهُمْ. أو أنهم أرادوا المفعول المتروك، أي يُخَوِّفُ المنافقين أوليائه، وإلا فهو يخوِّف الكفار كما يخوِّف المنافقين. ولو أريد أنه يخوف أوليائه أي يجعلهم خائفين لم يكن للضمير ما يعود إليه، وهو قوله ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ﴾.

وأيضاً فهذا فيه نظرٌ، فإن الشيطان يَعِدُ أوليائه وَيُمْنِيهِمْ، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ زَيْنُّ لَّهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَلَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمْ أَيَّوَّمٍ مِنَ النَّاسِ﴾ الآية [الأنفال: ٤٨]، وقال: ﴿يَعِدُّهُمْ وَيُمْنِيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٧٠﴾﴾ [النساء]. ولكن الكفار يُوقِعُ الله في قلوبهم الرعب من المؤمنين، والشيطان لا يختار ذلك، قال تعالى: ﴿لَأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللَّهِ﴾ [الحشر: ١٣]، وقال تعالى: ﴿إِذْ يُوحَىٰ رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ﴾ الآية [الأنفال: ١٢]، وقال: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا﴾ [آل عمران: ١٥١] وفي حديث قريظة^(١) أن جبريل قال: إني ذاهبٌ إليهم فأزلزلُ بهم الحصنَ.

فتخويف الكفار والمنافقين وإرعابهم هو من الله نصرٌ للمؤمنين، ولكن الذين قالوا ذلك من السلف أرادوا أن الشيطان يخوِّف الذين أظهروا الإسلام وهم يوالونه من العدو، فإنما يخاف من الكفار المنافقون بتخويف الشيطان لهم، كما قال تعالى: ﴿وَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُمْ بِمِنكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرُقُونَ ﴿٥١﴾﴾ [التوبة]، وقال تعالى: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الْمَعْرُوفِينَ مِنكُمْ﴾ [الأحزاب: ١٨] إلى قوله: ﴿وَإِن يَأْتِ الْأَحْزَابُ يَوَدُّوا لَوْ أَنَّهُمْ بَادُونَ فِي الْأَعْرَابِ يَسْأَلُونَ عَنْ أَنبِيَآئِكُمْ﴾ الآية [الأحزاب: ٢٠].

(١) انظر: «سيرة ابن هشام» (٢/٢٣٣، ٢٣٤).

فكلا القولين صحيح من حيث المعنى، لكن لفظ أوليائه في الآية هو الذي يجعلهم الشيطان مخوفين لا خائفين كما دلَّ عليه سياق الآية ولفظها، وإذا جعلهم الشيطان مخوفين وإنما يخافهم من خوِّفه الشيطان فجعله خائفاً. فالآية دلت على أن الشيطان يجعل أوليائه مخوفين، ويجعل ناساً خائفين أوليائه.

ودلَّت الآية على أن المؤمن لا يجوز أن يخاف أولياء الشيطان، وعليه أن يخاف الله، فخوف الله أمر به وخوف أولياء الشيطان نُهي عنه. وهذا كقوله في الآية الأخرى: ﴿لَيْسَ يَكُونُ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ الآية [البقرة: 150]، فنَهَى عن خشية الظالم وأمر بخشيته تعالى. وقال: ﴿الَّذِينَ يَبْلُغُونَ رَسُولَ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ [الأحزاب: 39]، وقال: ﴿فَإِنِّي فَأَرْهَبُونَ﴾ [النحل: 1] هـ^(١).

﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (٧٦) هـ.

(وقد قال سبحانه فيما يروي عنه رسوله: «يا عبادي إنكم لن تبغوا ضري فتضروني، ولن تبغوا نفعي فتنفعوني»^(٢))، وقال سبحانه في كتابه: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا﴾ فبين أن الخلق لا يضرونه سبحانه بكفرهم، لكن يؤذونه تبارك وتعالى إذا سبوا مقلب الأمور وجعلوا له سبحانه ولداً أو شريكاً وأذوا رسله وعباده المؤمنين، ثم إن الأذى الذي لا يضر المؤذي إذا تعلق بحق الرسول فقد رأيت عظم موقعه، وبيانه أن صاحبه من أعظم الناس كفراً وأشدهم عقوبة، فتبين بذلك أن قليل ما يؤذيه يكفر به صاحبه، ويحل دمه) هـ. ا. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿وَلَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْرِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَنْ يَصُرُوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلَّا يَجْعَلَ لَهُمْ حِطًّا فِي الْآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾^(٤)) وقال

(١) جامع المسائل (٤/ ٥٥ - ٥٨).

(٢) مسلم (٢٥٧٧).

(٣) الصارم المسلول (٦٢).

(٤) هذه الآية كتبت خطأ هكذا (لن يضروا الله شيئاً ولهم عذاب مهين) ولا توجد مثل هذه الآية في كتاب الله.

تعالى: ﴿وَوَلَّلْنَا عَلَيْكُمُ الْغَمَامَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّٰنَ وَالسَّلْوَىٰ كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿٥٧﴾﴾ [البقرة]، فقد بين أن العصاة لا يضرونه ولا يظلمونه كعصاة المخلوقين فإن ممالك السيد وجند الملك وأعوان الرجل وشركاءه إذا عصوه فيما يأمرهم ويطلبه منهم فقد يحصل له بذلك ضرر في نفسه أو ماله أو عرضه أو غير ذلك وقد يكون ذلك ظلماً له. والله تعالى لا يقدر أحد على أن يضره ولا يظلمه وإن كان الكافر على ربه ظهيراً فمظاهرتة على ربه ومعاداته له ومشاقته ومحاربتة عادت عليه بضره وظلمه لنفسه وعقوبته في الدنيا والآخرة وأما النفع فهو سبحانه غني عن الخلق لا يستطيعون نفعه فينفعوه فما أمرهم به إذا لم يفعلوه لم يضره بذلك كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧] وقال: ﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَفِيٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٤٠] وقال: ﴿إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفِيٌّ عَنكُم وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الزمر: ١٧] (١) هـ.

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّئِلُهُمْ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَمِّئِلُهُمْ لِيزَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ .

(وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُطَمِّئِلُهُمْ لِأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُطَمِّئِلُهُمْ لِيزَادُوا إِثْمًا وَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ والإملاء: إطالة العمر، وما في ضمنه من رزق ونصر) ١ هـ (٢) .

﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ وَاللَّهُ مِيرَاثُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨١﴾﴾ .

(وبين أن البخل من الكبائر في قوله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا ءَاتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيٰمَةِ﴾ وفي قوله: ﴿وَالَّذِينَ يَكْزُرُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ الآية [التوبة: ٣٤] ١ هـ (٣) .

(٢) اقتضاء الصراط المستقيم (٢/٧٨٢).

(١) النبوات (٩٣ - ٩٤).

(٣) مجموع الفتاوى (٢٨/٢٩٢).

وقال رحمه الله: (وثبت عنه في «الصحیح» أنه قال: «ما من صاحب كنز إلا جعل له كنزه يوم القيامة شجاعاً أقرع يأخذ بلهزمته، أنا مالك أنا كنزك»^(١) .

وفي لفظ: «إلا مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع يفر منه وهو يتبعه، حتى يطوقه في عنقه»، وقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية: ﴿سَيَطُوفُونَ مَا بِحُلُوبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ (٢) . ١. هـ^(٢) .

وقال رحمه الله: (والبخل جنس تحته أنواع: كباثر، وغير كباثر قال الله تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّفُونَ مَا بِحُلُوبِ يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾، وقال: ﴿وَأَعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَنْ كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾ (٦٦) الَّذِينَ يَبْخُلُونَ [النساء]، وقال تعالى: ﴿وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَتُهُمْ إِلَّا أَنْهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَى وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَاهِنُونَ﴾ (٥٤) [التوبة]، وقال: ﴿فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ﴾ (٧١) فَأَعَقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ [التوبة]، وقال: ﴿وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلْ عَن نَفْسِهِ﴾ [محمد: ٣٨]، وقال: ﴿قَوْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (١) الَّذِينَ هُمْ عَنْ صَلَاتِهِمْ سَاهُونَ (٥) الَّذِينَ هُمْ يُرَاءُونَ (٦) وَيَمْنَعُونَ الْمَاعُونَ (٧) [الماعون] وقال: ﴿وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ (٢٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ [التوبة] وكثير من الآي في القرآن من الأمر بالإيتاء والإعطاء، ودم من ترك ذلك [كله] ذم للبخل] ١. هـ^(٣) .

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ دُونِ عَذَابِ الْحَرِيقِ﴾ (١٦١) .

﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ - إلى قوله - ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ﴾ أي بما قدمتم؛ فإن بعض ما قدموه كلام تكلموا به) ١. هـ^(٤) .

(٢) مجموع الفتاوى (٦٥/٧).

(١) مسلم (٦٨٢/٢).

(٤) مجموع الفتاوى (٣٦٤/٦).

(٣) الاستقامة (٢٦٦/٢ - ٢٦٨).

وقال رحمه الله: (وقوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا وَالْقَيْنَا ^{سورة} يَنهَمُ الْعُدُوَّةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ كُلَّمَا أَوْقَدُوا نَارًا لِلْحَرْبِ أَطْفَأَهَا اللَّهُ وَسِعُونَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٤﴾ [المائدة]، وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٧٨﴾﴾ [ق].

ونزه نفسه عما وصفوه به من الفقر والبخل والإعياء فالإعياء من جنس العجز المنافي لكمال القدرة، والفقر من جنس الحاجة إلى الغير المنافي لكمال الغنى، والبخل من جنس منع الخير وكرهه العطاء، المنافي لكمال الرحمة والإحسان، وكمال القدرة والرحمة.

والغنى عن الغير مستلزم سائر صفات الكمال، فإن الفاعل إذا كان عاجزاً لم يفعل، وإذا كان قادراً ولم يرد فعل الخير لم يفعله، فإذا كان قادراً مريداً له فعل الخير، ثم إن كان محتاجاً إلى غيره، كان معاوضاً لا محسناً متفضلاً، وكان فيه نقص من وجه آخر، فإذا كان مع هذا غنياً عن الغير، لم يفعل إلا لمجرد الإحسان والرحمة، وهذا غاية الكمال (١) هـ.

وقال رحمه الله: (وقد قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاةٌ سَكَتُوبٌ مَا قَالُوا وَقَتَلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بَغْيًا حَتَّى وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ﴿٧٦﴾﴾ فإذا كان الذين قالوا إنه فقير قد توعدهم بهذا فكيف بمن يقول له الفقير؟! و«المصدر» أبلغ من الصفة وإذا كان منزهاً عن أن يوصف بذلك فكيف يجعل المصدر اسماً له؟! (٢) هـ.

﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيْنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٧٤﴾﴾ .
 (قالوا: وقال في سورة آل عمران: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَ رَسُولٌ مِّن قَبْلِكَ جَاءُوا بِالْبَيْنَاتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ ﴿٧٤﴾﴾ .

فأعني أيضاً بالكتاب المنير، الذي هو الإنجيل المقدس.

فيقال: قد تقدم أن الرسل تتناول قطعاً الرسل الذين ذكرهم الله في القرآن، لا سيما أولو العزم كنوح وإبراهيم وموسى وعيسى ابن مريم؛ فإن هؤلاء مع محمد ﷺ خاتم النبيين صلوات الله عليهم وسلامه، خصهم الله وفضلهم بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ النَّبِيِّينَ مِيثَاقَهُمْ وَمِنكَ وَمِنْ نُوحٍ وَإِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَأَخَذْنَا مِنْهُمْ مِيثَاقًا غَلِيظًا﴾ (٧) لِيَسْتَلِّ الْأَصْدِقِيْنَ عَن صِدْقِهِمْ وَأَعَدَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٨﴾ [الأحزاب]، وفي قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

فالدين، دين رسل الله، دين واحد كما بينه الله في كتابه، وكما ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «إنا معاشر الأنبياء ديننا واحد وإن أولى الناس بآبِنِ مَرْيَمَ لَأَنَا: إنه ليس بيني وبينه نبي»^(١).

ويتناول أيضاً اسم الرسل من لم يسمهم بأعيانهم في القرآن قال تعالى: ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا﴾ (١١٣) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴿١١٤﴾ رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١١٥﴾ [النساء] وقال تعالى: (ولقد أرسلنا رسلاً من قبلك من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك) [غافر: ٧٨] وأما الحواريون فإن الله تعالى ذكرهم في القرآن، ووصفهم بالإسلام واتباع الرسول وبالإيمان بالله، كما أنزل في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ رَسُولُ اللَّهِ رَبَّنَا ءَامَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ﴾ [آل عمران] وقال تعالى: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ ءَامِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا ءَامَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنَّكَ مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة]، وقال تعالى: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَمَنْتَ طَلِيفَةٌ مِنْ بَنَاتِ إِسْرَائِيلَ وَكَفَرْتَ طَالِفَةٌ فَأَيْدِنَا الَّذِينَ ءَامَنُوا عَلَى عُدُومِهِمْ فَاصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

ولم يذكر الله تعالى في القرآن أنه أرسلهم البتة بل ذكر أنه ألهمهم الإيمان به وبرسوله وأنهم أمروا باتباع رسوله. وقوله: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ﴾ [المائدة: ١١١] لا يدل على النبوة، فإنه قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَمْرَ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ [القصص: ٧] وأم موسى لم تكن نبية، بل ليس في النساء نبية كما تقوله عامة النصارى والمسلمين.

وقد ذكر إجماعهم على ذلك غير واحد، مثل القاضيين: أبي بكر بن الطيب، وأبي يعلى بن أبي الفراء، والأستاذ أبي المعالي الجويني وغيرهم. ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رَجُلًا نُوحِيَ إِلَيْهِمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرَىٰ﴾ [يوسف: ١٠٩] وقوله تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ﴾ [المائدة: ٧٥].

فجعل غاية مريم الصديقة كما جعل غاية المسيح الرسالة، وقد ثبت في الصحيحين عن النبي ﷺ أنه قال: «كامل من الرجال كثير ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية بنت مزاحم» يعني من نساء الأمم قبلنا، وهذا يدل على أن أم موسى ليست ممن كمل من النساء فكيف تكون نبية؟ وقوله تعالى: ﴿جَاءَ وَالْبَيْتِ وَالزُّبُرِ وَالْكِتَابِ الْمُنِيرِ﴾^(١).

والكتاب اسم جنس كما تقدم يتناول كل كتاب أنزله الله تعالى وقال تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَجِدُ فِي اللَّهِ عَيْبًا وَلَا يُدْرِي وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ [الحج] وقوله: ﴿وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾، نكرة في سياق النفي فيعم كل كتاب منير ولو لم يكن إلا الإنجيل؛ لقليل ولا الكتاب المنير وأيضاً فالتوراة أعظم من الإنجيل وقد بين الله أنه لم ينزل كتاباً أهدى من التوراة والقرآن فقال تعالى: ﴿قَالُوا لَوْلَا آتَيْنَا مِثْلَ مَا آتَيْنَا مُوسَىٰ أَنْ كُنَّا أَوْفَىٰ أَفْقًا أَوْ لَمْ يَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَا مُوسَىٰ مِنْ قَبْلُ قَالُوا سِحْرَانِ﴾ - وقرىء «ساحران» - ﴿نَظَّهَرَا وَقَالُوا إِنَّا بِكُلِّ كَيْفُورٍ قُلْ فَآتُوا بِكِتَابٍ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَا أَتَّبِعُهُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [القصص].

وهذا تعجيز لهم أن يأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما كقوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَيْنَاهُ قُلْ فَآتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ﴾ [يونس: ٣٨].

وهذا يبين أنه ليس الإنجيل ولا الزبور أهدى من التوراة والقرآن فكيف يجعل الكتاب المنير هو الإنجيل دون التوراة والزبور؟.

وأيضاً فإن الله تعالى إنما يخص بالذكر من الكتب المتقدمة التوراة دون غيرها، فهي التي يقرنها بالقرآن كقوله تعالى: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِثْلَ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُوراً وَهُدًى لِلنَّاسِ لِيَجْزِيَ قَرَأْتَهُمْ فَرَأَيْتُمْ كَيْفَ تَكْفُرُونَ ۚ وَعَلَّمْتُمْ مَا لَمْ تَعْلَمُوا أَنْتُمْ وَلَا آبَاؤُكُمْ قُلِ اللَّهُ نُزِّلَ فِيهِمُ الْوَحْيَ وَنَزَّلْنَا تِلْكَ الْوَحْيَ بِاللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ وَلِنُبَيِّنَ لَكُمْ آيَاتِهِ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ هُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ ١٠١﴾ [الأنعام] وقد وصف التوراة بأن فيها نوراً وهدى للناس، فكيف يجعل النور في الإنجيل دونها؟ وقال تعالى: ﴿ثُمَّ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ تَمَامًا عَلَى الَّذِي أَحْسَنَ وَتَفْصِيلاً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّعَلَّهُمْ بِلِقَاءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ١٥٤﴾ [الأنعام] وهذا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ مُصَدِّقٌ لِّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِنُنذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَهُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ١٦١﴾ [الأنعام] وَإِنْ كُنَّا عَنْ دِرَاسَتِهِمْ لَغَنَفِيلِينَ ١٥٦﴾ [الأنعام].

فقد ذكر التوراة والقرآن، وقولهم أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا فيبين أن الكتاب اسم جنس يتناول هنا التوراة والإنجيل كقوله تعالى: ﴿يَتَأْهَلُ الْكِتَابُ﴾ وقوله تعالى: ﴿أَيُّومٍ أُحِلَّ لَكُمْ الطَّيِّبَاتُ وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [المائدة: ٥] فذكر الكتاب بلفظ المنفرد، ومعلوم أنه أراد بالذين أوتوا الكتاب من قبلنا اليهود والنصارى لا يختص ذلك بالنصارى كما قال: ﴿أَنْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَنْزَلَ الْكِتَابَ عَلَى طَائِفَتَيْنِ مِنْ قَبْلِنَا﴾ [الأنعام: ١٥٦] وقد تبين بطلان قول هؤلاء الذين يحرفون الكلم عن مواضعه، ويفسرون كلام الله ورسوله بما يعلم كل من عرف حاله من مؤمن وكافر أنه لم يرد.

وبين أن الله لم يرد بالكتاب الإنجيل وحده كما لم يرد بالرسول الحواريين، بل أراد بالكتاب المنير ما أنزله الله من الكتب كالتوراة والإنجيل، كما أراد بالرسول من أرسله الله مطلقاً كنوح وإبراهيم وموسى والمسيح ابن مريم صلوات الله عليهم وسلامه (أجمعين) ١. هـ^(١).

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّقُونَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ رُحِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْفُرُورِ ١٨٥﴾ [الأنعام].

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾؛ فإن ذوق الميت يختلف اختلافاً متبايناً؛ لكن هذا

الاختلاف لا دلالة للفظ عليه، فلم يمنع من الاشتراك الذي دل عليه العموم) ١. هـ^(١).

﴿ تَتَّبِعُوا فِي مَوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْمَعَكُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيراً وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾

قال رحمه الله: (فأمر سبحانه بالصبر على أذى المشركين وأهل الكتاب مع التقوى وذلك تنبيه على الصبر على أذى المؤمنين بعضهم لبعض؛ متأولين كانوا أو غير متأولين) ١. هـ^(٢).

وقال رحمه الله بعد ذكر الآية السابقة: (فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بألسنتهم، وأخبر أنهم إن يصبروا ويتقوا فإن ذلك من عزم الأمور. فالصبر والتقوى يدفع شر العدو المظهر للعداوة، المؤذنين بألسنتهم والمؤذنين بأيديهم وشر العدو المبطن للعداوة. وهم المنافقون، وهذا الذي كان خلق النبي ﷺ وهديه هو أكمل الأمور) ١. هـ^(٣).

وقال رحمه الله: (ولقوله تعالى: ﴿وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾).

فإن التقوى تتضمن فعل المأمور وترك المحذور، والصبر يتضمن الصبر على المقدور) ١. هـ^(٤).

وقال رحمه الله: (فإن قيل: فقد قال تعالى: ﴿تَتَّبِعُوا فِي مَوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَسْمَعَكُمْ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيراً وَإِنْ تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ فأخبر أنا نسمع منهم الأذى الكثير، ودعانا إلى الصبر على أذاهم، وإنما يؤذينا أذى عاماً الطعن في كتاب الله ودينه ورسوله، وقوله تعالى: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَذَى﴾ [آل عمران: ١١١]. من هذا الباب.

(١) مجموع الفتاوى (٣١/١٧١).
 (٢) الاستقامة (١/٣٨).
 (٣) مجموع الفتاوى (١٠/٥٠٨).
 (٤) جامع الرسائل (٢/٧٥).

قلنا؛ أولاً: ليس في الآية بيان أن ذلك مسموع من أهل الذمة والعهد، وإنما هو مسموع في الجملة من الكفار.

وثانياً: إن الأمر بالصبر على أذاهم وبتقوى الله لا يمنع قتالهم عند المكنة، وإقامة حد الله عليهم عند القدرة؛ فإنه لا خلاف بين المسلمين أنا إذا سمعنا مشركاً أو كتابياً يؤدي الله ورسوله فلا عهد بيننا وبينه، بل وجب علينا أن نقتله ونجاهده، إذا أمكن ذلك.

وثالثاً: أن هذه الآية وما شابهها منسوخ من بعض الوجوه، وذلك أن رسول الله ﷺ لما قدم المدينة كان بها يهود كثير ومشركون، وكان أهل الأرض إذ ذاك صنفين: مشركاً، أو صاحب كتاب، فهادن رسول الله ﷺ من بها من اليهود وغيرهم، وأمرهم الله إذ ذاك بالعفو والصفح كما في قوله تعالى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كَفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا نَبَّيْنَهُمْ أَن لَّهُمُ الْحَقُّ فَاَعْفُوا وَأَصْفَحُوا حَقَّ يَأْتِي اللَّهُ بِأَمْرٍ﴾ [البقرة: ١٠٩] فأمره الله بالعفو والصفح عنهم إلى أن يظهر الله دينه ويعز جنده، فكان أول العز وقعة بدر، فإنها أذلت رقاب أكثر الكفار الذين بالمدينة، وأرهبت سائر الكفار) ١. هـ^(١).

وقال رحمه الله: (وقال الواقدي: حدثني عبد الحميد بن جعفر عن يزيد بن رومان ومعمر عن الزهري عن ابن كعب بن مالك وإبراهيم بن جعفر عن أبيه عن جابر بن عبد الله، فكل قد حدثني منه بطائفة، فكان الذي اجتمعوا لنا عليه قالوا: ابن الأشرف كان شاعراً، وكان يهجو النبي ﷺ وأصحابه، ويحرض عليهم كفار قريش في شعره، وكان رسول الله ﷺ قدم المدينة وأهلها أخلاط منهم المسلمون الذين تجمعهم دعوة الإسلام فيهم أهل الحلقة والحصون ومنهم حلفاء للحيين جميعاً الأوس والخزرج، فأراد رسول الله ﷺ حين قدم المدينة استصلاحهم كلهم وموادعتهم، وكان الرجل يكون مسلماً وأبوه مشركاً، فكان المشركون واليهود من أهل المدينة يؤذون رسول الله ﷺ وأصحابه أذى شديداً فأمر الله نبيه والمسلمين بالصبر على ذلك والعفو عنهم، وفيهم أنزل: ﴿وَلَسْتُمْ مِّنْ الَّذِينَ أُوْتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذَى كَثِيرًا وَإِن تَصَبَرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِّنْ عَزْوِ

الْأُمُورِ ﴿١٠٩﴾ [١٠٩] (١) هـ. ١. هـ. (٢).

وَفِيهِمْ أَنْزَلَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾ [البقرة:

وقال رحمه الله: (قال تعالى: ﴿لَتُبْلَوُنَّ فِيْ أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنْ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيْرًا وَإِنْ نَصَبُوا وَتَقَوُا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾ (١٠٩) فأخبرهم أن أعداءهم من المشركين وأهل الكتاب لا بد أن يؤذوهم بألسنتهم، وأخبر أنهم إن يصبروا ويتقوا فإن ذلك من عزم الأمور، فالصبر - والتقوى - يدفع شر العدو المظهر للعداوة، المؤذنين بألسنتهم والمؤذنين بأيديهم، وشر العدو المبطن للعداوة وهم المنافقون) هـ. ١. هـ. (٣).

﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَأَشْرَوْا بِهِ مِنْنَا قَلِيْلًا فَبِمَا يَشْتَرُونَ﴾ (١٧٧) ﴿﴾.

(قال تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ﴾ الآية فمن أمر بكتن ما وصف الله به نفسه ووصفه به رسوله فقد كتتم ما أنزل الله من البيئات والهدى من بعد ما بينه للناس في الكتاب وهذا مما ذم الله به علماء اليهود وهو من صفات الزائغين من المنتسبين إلى العلم من هذه الأمة وقال النبي ﷺ: «من سئل عن علم يعلمه فكتمه ألجمه الله يوم القيامة بلجام من نار» (٤) وقد قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةً عِنْدَهُ مِنَ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٤٠] هـ. ١. هـ. (٥).

﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَطْلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾ (١٦١) ﴿﴾.

(قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (١٦١) ﴿﴾).

(١) أسباب النزول ذكرها ابن هشام في سيرته (١٩٧/٢) والطبري (١٧٨٨).

(٢) الصارم المسلول (٨٣). (٣) جامع الرسائل (١٣٧/٢).

(٤) رواه أبو داود (٣٦٠/٣) والترمذي (٣٧٠/٣) وابن ماجه (٢٣/١) وأحمد (٢٦٣/٢)، ٢٩٦، ٣٠٥، (٣٤٤) والطيلسي (٢٥٣٤) والحاكم (١٠١/١) وغيره، والحديث صحيح لكثرة طرقه والله أعلم.

(٥) الفتاوى (٩/٥ - ١٠).

وقد جاء في الأثر: «تفكروا في المخلوق ولا تتفكروا في الخالق»^(١)؛ لأن التفكير والتقدير يكون في الأمثال المضروبة، والمقاييس، وذلك يكون في الأمور المتشابهة، وهي المخلوقات) ا.هـ^(٢).

وقال رحمه الله: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾، وقال النبي ﷺ لعمران بن حصين: «صل قائماً، فإن لم تستطع فقاعداً، فإن لم تستطع فعلى جنب»^(٣) ا.هـ^(٤).

﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾^(٥).

(والثاني: التوسل بذلك إلى حصول ثواب الله وجنته ورضوانه، فإن الأعمال الصالحة التي أمر بها الرسول ﷺ هي الوسيلة التامة إلى سعادة الدنيا والآخرة، ومثل هذا كقول المؤمنين: ﴿رَبَّنَا إِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَانِ أَنْ ءَامِنُوا بِرَبِّكُمْ فَءَامَنَّا رَبَّنَا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّئَاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ الْأَبْرَارِ﴾^(٦) فإنهم قدموا ذكر الإيمان قبل الدعاء، ومثل ذلك ما حكاه الله سبحانه عن المؤمنين في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا ءَامِنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ﴾ [المؤمنون: ١٠٩] وأمثال ذلك كثير) ا.هـ^(٥).

﴿فَأَسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَمِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنثِيَ بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأُوذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقُتِلُوا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ بَّحْرِيٍّ مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ﴾^(٧).

(قال الله سبحانه: ﴿بَعْضُكُمْ مِّنْ بَعْضٍ﴾ أي أنتم نوع واحد متفقون في القصد والهدى كالروحين اللتين تتفقان في صفاتهما؛ وهي الجنود المجندة التي قال النبي ﷺ: «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف»^(٦) ا.هـ^(٧).

- | | |
|----------------------------|---------------------------------|
| (٢) مجموع الفتاوى (٣٩/٤). | (١) مرّ تخريجه. |
| (٤) الجواب الصحيح (٤١٧/٤). | (٣) البخاري (١١١٥). |
| (٦) مسلم (٢٦٣٨). | (٥) مجموع الفتاوى (٣٠٩/١). |
| | (٧) مجموع الفتاوى (٧٣/١١ - ٧٤). |

﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَايَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٤٩﴾﴾ .

وقال رحمه الله: (وهذه الآية قد قال طائفة من السلف: إنها نزلت في النجاشي، ويروى هذا عن جابر وابن عباس وأنس^(١) ومنهم من قال: فيه وفي أصحابه؛ كما قال الحسن وقتادة^(٢)) وهذا مراد الصحابة ولكن هو المطاع، فإن لفظ الآية لفظ الجمع لم يرد بها واحد.

وعن عطاء^(٣) قال: نزلت في أربعين من أهل نجران وثلاثين من الحبشة وثمانية من الروم وكانوا على دين عيسى فآمنوا بمحمد ﷺ، ولم يذكر هؤلاء من آمن بالنبي ﷺ بالمدينة، مثل: عبد الله بن سلام وغيره ممن كان يهودياً، وسلمان الفارسي وغيره ممن كان نصرانياً، إلا^(٤) هؤلاء صاروا من المؤمنين فلا يقال فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ﴾، ولا يقول أحد: إن اليهود والنصارى بعد إسلامهم وهجرتهم ودخولهم في جملة المسلمين المهاجرين المجاهدين يقال: إنهم من أهل الكتاب، أي من جملتهم وقد آمنوا بالرسول كما قال تعالى في المقتول خطأ: ﴿وَإِنْ كَانَتْ مِنْ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ﴾ إلى قوله: ﴿عَدُوٌّ لَكُمْ وَهُوَ مُؤْمِنٌ﴾ فتحرير رقبته مؤمنة^(٥) [النساء: ٩٢]، فهو من العدو ولكن هو كان قد آمن وما أمكنه الهجرة وإظهار الإيمان والتزام شرائعه، فسماه مؤمناً لأنه فعل من الإيمان ما يقدر عليه

وقد قال بعض المفسرين^(٥): إن هذه الآية نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه كما نقل عن ابن جريج ومقاتل وابن زيد، يعني: قوله: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ﴾،

(١) هذا كلام ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥٣٢/١) أما عن جابر فرواه الطبري (٨٣٧٦) وسنده ضعيف. وإما عن أنس فرواه النسائي في «تفسيره» (١٠٨) والبزار (٨٣٢ - كشف) والواحدي في «أسباب النزول» (ص ١٠٥) والحديث حسن والله أعلم، أما عن ابن عباس فلم أجده إلا عند ابن الجوزي في زاد المسير.

(٢) ذكره عن الحسن البصري عبد بن حميد وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير وزاد المسير (٥٣٢/١) والسيوطي في الدر (٤١٦/٢) أما قتادة فذكره ابن الجوزي في زاد المسير.

(٣) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٥٣٣/١)

(٤) كذا في الأصل ولعله سقط: أن.

(٥) «زاد المسير» (٥٣٣/١).

وبعضهم قال: إنها في مؤمني أهل الكتاب فهو كالتقول الأول، وإن أراد العموم فهو كالثاني وهذا قول مجاهد، ورواه أبو صالح عن ابن عباس^(١).

وقول من أدخل فيها ابن سلام وأمثاله ضعيف؛ فإن هؤلاء من المؤمنين ظاهراً وباطناً من كل وجه، لا يجوز أن يقال فيهم: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَنْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَشِيعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتُرُونَ بِعَيْدَتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾.

أما أولاً: فإن ابن سلام أسلم في أول ما قدم النبي ﷺ المدينة، وقال: فلما رأيت وجهه عرفت أن وجهه ليس بوجه كذاب وسورة آل عمران إنما نزل ذكر أهل الكتاب فيها لما قدم وفد نجران سنة تسع أو عشر.

وثانياً: أن ابن سلام وأمثاله هو واحد من جملة الصحابة والمؤمنين وهو من أفضلهم، وكذلك سلمان الفارسي، فلا يقال فيه: إنه من أهل الكتاب وهؤلاء لهم أجور مثل أجور سائر المؤمنين بل يؤتون أجرهم مرتين وهم ملتزمون بجميع شرائع الإسلام، فأجرهم أعظم من أن يقال فيه: ﴿أُولَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ﴾.

وأيضاً فإن أمر هؤلاء كان ظاهراً معروفاً ولم يكن أحد يشك فيهم، فأى فائدة في الإخبار بهم؟ وما هذا إلا كما يقال: الإسلام دخل فيه من كان مشركاً أو كان كتابياً، وهذا معلوم لكل أحد بأنه دين لم يعرف قبل محمد ﷺ فكل من دخل فيه كان قبل ذلك إما مشركاً وإما من أهل الكتاب إما كتابياً وإما أمياً فأى فائدة في الإخبار بهذا؟ بخلاف أمر النجاشي وأصحابه ممن كانوا متظاهرين بكثير مما عليه النصارى؛ فإن أمرهم قد يشتهه.

ولهذا ذكروا في سبب نزول هذه الآية: أنه لما مات النجاشي صلى عليه النبي ﷺ، فقال قائل: تصلي على هذا العليج النصراني وهو في أرضه فنزلت هذه الآية^(٢)، هذا منقول عن جابر وأنس بن مالك وابن عباس، وهم من الصحابة الذين باشروا، الصلاة على النجاشي، وهذا بخلاف ابن سلام وسلمان الفارسي؛ فإنه إذا صلى على واحد من هؤلاء لم ينكر ذلك أحد.

وهذا مما يبين أن المظهرين للإسلام فيهم منافق لا يصلى عليه، كما نزل في حق ابن أبي وأمثاله وإن من هو في أرض الكفر يكون مؤمناً يصلى عليه كالنجاشي.

(٢) هذه رواية الطبري التي مر ذكرها.

(١) «زاد المسير» (١/٥٣٣).

ويشبه هذه الآية أنه لما ذكر تعالى أهل الكتاب فقال: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (١٠١) لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَىٰ وَإِن يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ﴾ (١٠٢) ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذَّلِيلَةُ أَيْنَ مَا نُفِقُوا إِلَّا بِحَبْلِ مِنَ اللَّهِ وَبِحَبْلِ مِنَ الْإِنسِ وَبِأَمْرِ مِنَ اللَّهِ وَبِضَرْبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾ (١٠٣) لَيْسُوا سَوَاءً مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ ءَانَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ﴾ (١٠٤) يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَرَأَوْا بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُسْرِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (١٠٥) [آل عمران] وهذه الآية قيل: إنها نزلت في عبد الله بن سلام وأصحابه وقيل: إن قوله: ﴿مِنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ هو عبد الله بن سلام وأصحابه.

وهذا والله أعلم من نمط الذي قبله؛ فإن هؤلاء ما بقوا من أهل الكتاب، وإنما المقصود من هو منهم في الظاهر وهو مؤمن؛ لكن لا يقدر على ما يقدر عليه المؤمنون المهاجرون المجاهدون، كمؤمن آل فرعون هو من آل فرعون وهو مؤمن ولهذا قال تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [غافر: ٢٨] فهو من آل فرعون وهو مؤمن وكذلك هؤلاء منهم المؤمنون؛ ولهذا قال: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ وقد قال قبل هذا: ﴿وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ مِّنْهُمْ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾، ثم قال: ﴿لَنْ يَضُرُّكُمْ إِلَّا أَدَىٰ﴾، وهذا عائد إليهم جميعهم لا إلى أكثرهم؛ ولهذا قال: ﴿وَإِن يَقْتُلُوكُمْ يُولُوكُمُ الْأَدْبَارَ ثُمَّ لَا يُصْرُونَ﴾ وقد يقاتلون وفيهم مؤمن يكتُم إيمانه يشهد القتال معهم ولا يمكنه الهجرة وهو مكره على القتال، ويبعث يوم القيامة على نيته، كما في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: «يغزو جيش هذا البيت، فبينما هم ببداء من الأرض إذ خسف بهم، فقيل: يا رسول الله! وفيهم المكره، قال: يبعثون على نياتهم»^(١) وهذا في ظاهر الأمر وإن قتل وحكم عليه بما يحكم على الكفار فالله يبعثه على نيته، كما أن المنافقين منا يحكم لهم في الظاهر بحكم الإسلام ويبعثون على نياتهم) ا. هـ^(٢).

(١) البخاري (٢١١٨)، ومسلم (٢٨٨٤).

(٢) منهاج السنة (١١٤/٥ - ١٢١)، مجموع الفتاوى (٢١٩/١٩ - ٢٢٥)، وهذه القطعة في مجموع الفتاوى (٢٠٣/١٩ - ٢٢٧) مستتلة من منهاج السنة فوجب التنبيه.